«الثَّقَافَة»: التَّعْرِيفُ والرُّؤيَة

٢-١) مَدْخَل:

هناك شِبْهُ إجْماعٍ بين المُثقَّفين والمُفكّرين العرب، بمُخْتلف أطْيافِهم واهْتماماتِهم، على أنّ «المَسْأَلَةَ الثّقافيّةَ» تُمَثِّلُ عُنْصُراً جوهريّاً في «العمليّة النّهْضَويّة»، وهذا - على سبيل المِثال - ما يُؤكِّدُهُ طيِّب تيزيني[٨] الذي يرى أنّ هناك: (ثلاثة مَداخِل لا يَصِحُّ إغْفالُهَا باتِّجاهِ الدُّخُولِ في الفِعْلِ النّهْضَويّ العربيّ)؛ وهي: «المَدْخَلُ الاقْتصاديّ»، و«المَدْخَلُ السِّياسيّ»، و«المَدْخَلُ الثّقافيّ» الذي له: (أهميّةٌ ذاتيّةٌ خاصّةٌ على صعيد المَشْرُوع النّهْضَويّ العربيّ؛ ذلك أنّه يَعْمَلُ على إعادةِ بِنَاءِ الإنْسان العربيّ عُمُوماً عبْر تَحْصينِه بالقِيَم العَقْلانيّةِ والوطنيّةِ والقوميّةِ النّقْديّة، وبمفاهيم المُسَاوَاةِ والتَّسَامُحِ والتَّضَامُنِ والأُخُوّةِ والإنْسانيّةِ العالَميّة).

أمّا إهمال «المَسْأَلَةَ الثّقافيّةَ» في التّفاعُلاتِ العربيّةِ وسياساتِها المُخْتلفةِ، فأمْرٌ يكاد يكون مُتَوَقَّعاً، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ فَهْمَ مدى تَأْثيرِ «الثّقافة» على المُجْتمعات أمْرٌ حديثٌ نِسْبيّاً على خريطة «الفِكْر الإنْسانيّ»»، وهذا ما يُؤكِّدُهُ فريدريك جيمسون (Fredric Jamson) بقوله: (لقد تَوسَّعَ مَفْهُومُ «الثّقافة» توسُّعاً هائِلاً في جميع أرْجاء المجال الاجْتماعيّ حتّى صار من المُمْكِنِ القَول إنّ كُلَّ ما في حياتنا الاجْتماعيّة، من القيمةِ الاقْتصاديّةِ وسُلْطَةِ الدّولةِ والمُمَارَسَاتِ إلى بِنْية النّفْس ذاتها، قد غدا «ثقافيّاً» بالمَعْنَى الأصْليّ للكلمة وعلى نَحْوٍ لم يُنْظَرْ له بعْد)[٢٧].

وبمَنْأىً عن التّوصيفاتِ ذات النَّكْهَاتِ الحَرَكيّةِ والصِّبْغَاتِ التّعْميميّة، فإنّ ما يُهِمُّنَا هنا هو التّأْكيدُ على مِحْوَرِيّةِ «الدَّوْرِ الثّقافيِّ» في «مَشْرُوع النَّهْضَة». ولكي نُؤسِّسَ لمُعَالَجَةٍ

موضوعيّةٍ لقضيّةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، التي هي مِحْوَرُ اهْتِمَامِ هذا الكِتاب، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَتَعَرَّفَ - ابْتداءً - على مضامين مُصْطلح «الثّقافة»، وأنْ نَخْلُصَ إلى تَعْريفٍ مُنْضَبِطٍ لـه، حيث إنّه «لَفْـظٌ طَارِئٌ» على اللّغـة العربيّة، ومن دَلالاتِـهِ اللّغويّةِ «تَقْويـمُ الاعْوِجَاجِ» و«الفَطَانَـةِ» و«الحِذْقِ»، وقـد جاء في «لِسَانِ العـرب»: (ثَقِفَ الشّـيء، أيْ حَذَقَهُ وفَهِمَه) [١٨،٢٨،٢٩]. لقـد تَمَّ توليـدُ مُصْطلح «الثّقافة» في اللّغـة العربيّة ليُقَابِـلَ المُصْطلح الغَرْبيّ «Culture»، وليَحْمِـلَ أبْعَاداً فِكْريّةً، ومضاميـن اجْتماعيّةً، ورُؤىً حياتيّةً، أعْمق بكْثيرٍ من دَلالاتِ المَعْنَى اللّغويّ للكلمة، ويَبْدُو أنّ سلامة موسى هو الذي سَكَّ هذا المُصْطلح ليُقَابِلَ المُصْطلـح الغرْبيّ بدَلالاتِـه الحديثةِ حيث يقول: (كنتُ أوّل من أفْشَى لَفْظَةَ «الثّقافة» في الأدب العربـيّ الحديث ولم أكنْ أنا الـذي سَكَّهَا بنفْسه فإنّي انْتَحَلْتُهَا من ابن خلدون، إذْ وَجَدْتُهُ يَسْتَعْمِلُهَا في مَعْنىً شبيهٍ بلَفْظَةِ «كلتور» الشّائِعَةِ في الأدب الأوروبيّ حيث «الثّقافة» هـي المعارِف والعلوم والآداب والفُنُون يَتَعَلَّمُهَا النّاسُ ويَتَثَقَّفُون بها، وقد تَحْتويها الكُتُبُ ومع ذلك هي خاصّةٌ بالذِّهْن) [٣٠].

٢-٢) تَعْريفاتٌ لمُصْطلح «الثقافة»:

يَتَّسِـعُ مُصْطلحُ «الثّقافة» (Culture) في «الفِكْرِ الغَرْبـيِّ» لدَلالاتٍ فِكْريّةٍ وتاريخيّةٍ ولُغَويّـةٍ واجْتماعيّةٍ وفَلْسفيّةٍ، ويرى مالك بن نبـيّ أنّ «مَفْهُومَ الثّقافة» في «الفِكْر الغَرْبيّ» هـو: (ثَمَرَةٌ من ثِمَـارِ «عَصْرِ النَّهْضَـة» عندما شَهِـدَتْ أوروبا في القَـرْن السّادس عشر انْبثـاق مَجْمُوعـةٍ من الأعْمال الأدبيّة الجليلـة في الفنّ وفي الأدب وفـي الفِكْر) [٢٨]، كما أنّ العَلاقَـةَ الجَدَليّـةَ - التّبَادُليّـةَ بيـن مُصْطلحاتِ «الثّقافـة» و«الحضـارة» و«المَدَنيّة» و«المَعْرِفَـة» و«الطّبيعـة» تُلْقِي بظِلالِهَا الكثيفةِ والمُهِمّةِ عند التّعْريـفِ والتّحْليلِ والتّقْويم والتّأْصيـل [١٨،٢٠،٢٧،٢٨،٣١]. وفـي حالة «الفِكْـر الغَرْبيّ»، نجدُ أنّ تَعْريـفَ مُصْطلح «الثّقافة» يَخْضَعُ للتّوجُّهَاتِ الفِكْريّةِ السّائِدَةِ والاهْتِماماتِ الفلْسفيّةِ المُهَيْمِنَةِ في المرْحلةِ التّاريخيّةِ المَعْنِيَّة؛ فهو عند بعْضهم «تُرَاثُ الإنْسانيّات الإغْريقيّة اللاتينيّة» [٢٨] لتكون «الثّقافة» هي «ثَمَـرَةُ الفِكْر» لتُصْبِـحَ ذات عَلاقَةٍ وظيفيّـةٍ بالإنْسان، وعند آخَرين تكـونُ «الثّقافة» هي

«فَلْسَفَـةُ المُجْتمع» لتُصْبِحَ ذات عَلاقَـةٍ وظيفيّةٍ بالجماعة[٢٨]، ويرى بعضهم أنّ «الثّقافة» تُشِيرُ إلى «أَرْفَعِ أشْكَالِ التّهْذيبِ البشريّ»[٢٧].

ومـن أقْـدم تَعْريفـات «الثّقافـة» ذلـك التّعْريـف الـذي طَرَحَـهُ إدوارد تايلـور (Edward Taylor) في أواخِر القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وهو يَنُصُّ على أنّ «الثّقافة» هي: (كُلٌّ مُرَكَّبٍ يَشْتَمِلُ على المَعْرفة والمُعْتقدات، والفُنُون والأخْلاق، والقانون والعُرْف، وغيـر ذلك من العـادات التي يَكْتَسِبُهَا الإنْسـانُ باعْتِبارِهِ عُضْواً فـي المُجْتمع)[٣١]، ومن الواضِـح أنّ هـذا التّعْريـف يَغْرِسُ «الثّقافـة» في «التّرْكيبـة المُجْتمعيّـة» ليُصْبِحَا وَحْدَةً مُتفاعِلـةً، ممّا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» لا تُوجَدُ إلاّ في وجود «المُجْتمع»، وأنّ «المُجْتمع» لا يقومُ ويَبْقَى إلاّ بـ«الثّقافة» التي تَمُدُّهُ بالأدواتِ اللّازِمَةِ لاطِّرَادِ الحياة فيه، ولا فَرْقَ في ذلك بين الثّقافات البدائيّة والحديثة. أمّا أبْرز التّعْريفاتِ المُبَكِّرَةِ لـ«الثّقافة» عند العرب فهو أنّها (الأَخْـذُ من كُلِّ شيءٍ بطَرَف)[٢٩]، وفي أوروبـا قالوا: (لا يَتِمُّ عِلْمُ المَرْءِ إلاّ إذا عَلِمَ شيئاً عـن كُلِّ شـيءٍ، وكُلَّ شيءٍ عن شـيء)[٢٩]، إلاّ أنّ التّجْرِبة الإنْسانيّـة الحديثة والمُقارَبات الفِكْريّة المُتَطَوِّرة تجـاوزتْ هذه التّعْريفات بمراحِل؛ فما عُرِفَ بـ«المُثقَّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو النَّمُوذَجُ الذي نَشَأَ في القَرْن الثّامن عشر في أوروبا، قد تآكل بفِعْلِ عناصِر عِدَّةٍ ليس أهْونهـا بُرُوزَ أنْمَاطٍ مَعْرفيّـةٍ مُخْتلفةٍ ذات طَابَعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعـةٍ تراكُميّةٍ وخصائِص مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبَحَ لها التّأْثيرُ الأكْبر في حياةِ البشر وتَطَوُّرِ المُجْتمعات.

لقـد تفاعـل «مَفْهُومُ الثّقافة» مع أنْمَـاطِ «الحياة الحديثـة»، وأشْكالِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُتَعَدِّدَة، فنجدُ – على سبيل المِثـال – أنّ تشارلز سنو (C.P.Snow)، في أواخِر الخمْسينات من القَرْن الماضي، يُقَرِّرُ أنّ: («الثّقافة» هي الاسْتِجَابَةُ المُتَماثِلَةُ التي تَحْـدُثُ دون تَفْكيـر)[٣٢]، وهذا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» هي الشّيء الذي يُصْبِـحُ شِبْهَ غريزيٍّ فـي التّفْكيـرِ والتّحْليلِ والسُّلُـوكِ والمُمَارَسَةِ، فهي بذلك تُصْبِحُ وفْـق التّعْبير الإنْجليزيّ: «طبيعةً ثانيةً» (Second nature). ويَلْتَقِي هذا التّعْريفُ مع رأي تيري إيجلتون (Terry Eagleton) الـذي يَعْتَبِـرُ أنّ «الثّقافة» هي: (تلك القناعات والمُيُـول المُسَلَّم بها بداهةً، والتـي لا بُدَّ مـن وجودها كي يكون بمقْدُورنـا أنْ نَتَصَرَّفَ أيّما تَصَـرُّف)[٢٧]، ويكاد هذا

التّعْريـفُ يتطابـقُ مع الرّأي الـذي رواه مالك بن نبـيّ[٣٣] عن إدوار هوريـو - عميد كلية الآداب فـي «جامعة ليون» - بقوله: («الثّقافة» هي مـا يَبْقَى عَالِقاً بالأذْهَانِ عندما نَنْسَى مـا تَعَلَّمْنَـاه)، وتَقْتَرِبُ هذه الرُّؤيةُ لـ«الثّقافة» مع ما طَرَحَـهُ توماس إليوت (T.S.Eliot) حيث يقول: («الثّقافة» هي قبل كُلِّ شيءٍ ما يَعْنِيه الأنْثروبولوجيّون؛ أيّ طريقة حياة شَعْبٍ بعينه يعيشُ معاً في بُقْعَةٍ وَاحِدَة)[٢٧]؛ وبالتّالي فإنّ «ثقافة المُجْتمع» عند إليوت هي: (ما يَجْعَلُ من هذا المُجْتمع مُجْتمعاً)[٢٧]. ويتوافقُ هذا التّعْريفُ مع اخْتيار زكي نجيب محمود إذْ يقـول: (تَجَانُسُ الشَّعْـبِ الوَاحِدِ فـي ثقافةٍ وَاحِـدَةٍ، معْنَاهُ أنّ أفْراد ذلـك الشَّعْبِ قد رَبَطَتْهُـم «اهْتماماتٌ» مُتَشابِهةٌ، يَتَّجِهُون بها جميعـاً نحو أُفُقٍ وَاحِدٍ مُشْتَرَك)[٢٠]، وتَتَعَمَّقُ الرُّؤيةُ نفْسها عند قسطنطين زريق حيث يُؤكِّدُ أنّ «الثّقافة» هي: (جِمَاعُ حياة مُجْتمعٍ من المُجْتمعات، بُدَائيّاً كان أو مُتَقَدِّماً رَاقِياً)[١٨].

وبالإضافـة إلـى أنّ لمُصْطلح «الثّقافـة» تداعياتٍ لُغَويّـةً وتاريخيّـةً وفَلْسفيّةً، فإنّه - أيضـاً - مَحَـلُّ صِراعٍ سياسـيٍّ؛ فيرى فريدريـك تشيللـر (Friedrich Schiller) أنّ: («الثّقافـة» هي الآليّـةُ المُحَرِّكَةُ حيث تُقَولِبُ الذّوات البشريّة تَبَعاً لحاجاتِ نَوْعٍ جديدٍ من النّظـام السّياسيّ، فتُعِيدُ صِياغتهم، وتُحَوِّلُهُمْ إلـى أدواتٍ طَيِّعةٍ ومُعْتدِلَةٍ ولا مُبالِيَة)[٢٧]، ويُمَحِّصُ ريموند ويليامز (Raymond Williams) تلك الرُّؤية لتَسْتَوْعِبَ مَفْهُوماً حركيّاً ديناميكيّـاً حيث يقـول: (إنّ المعاني المُتَشابِكـةَ المُعَقَّدَةَ التي يَنْطَـوِي عليها المُصْطلحُ تُشِيـرُ إلى سِجَالٍ مُتَشابِكٍ ومُعَقَّدٍ بشَأْن العَلاقَاتِ التي تَرْبط بين التّطوُّرِ الإنْسانيّ العامّ، وطريقـةِ حياةٍ مُحَدَّدَةٍ، وبين كليهما من ناحيةٍ، وبين أعْمالِ ومُمَارَسَاتِ الفنّ والذّكاء من ناحيةٍ أخْرى)[٢٧].

من المُهِمّ - في هذا السّياق - أنْ نَتَطَرَّقَ إلى تَعْريف «الثّقافة» الذي اخْتَارَهُ تشارلز سنـو[٣٢] عنـد صِياغتـه لمُصْطلـح «الثّقافَتَـان» (The Two Cultures)، فهـو يـرى أنّ «الثّقافة» تَحْمِلُ مَضْمُونَيْن؛ حيث يَقَعُ المَضْمُونُ الأوّلُ في إطارِ تَعْريفِ القاموس للمُصْطلح الـذي يُوَضِّـحُ أنّ: («الثّقافة» هي التّطْويرُ الفِكْريُّ وتَنْميةُ العَقْـل)، وأمّا المَضْمُونُ الثّاني الـذي اخْتَارَهُ سنو فيتلخَّصُ في أنّ: («الثّقافة» هـي العاداتُ والمعاييرُ المُشْتَرَكَةُ وأنْمَاطُ

السُّلُـوكِ المُوحَّدَةُ والفَرْضِيّاتُ والمُعَالَجَاتُ المُتوافِقَةُ بيـن الأفْرَادِ في المُجتَمع المَعْنِيّ) [٣٢]، وأمّـا محمد عابد الجابريّ، فيَطْرَحُ تَعْريفاً لـ«المُثقّف» يَشْمَلُ جميع (الذين يَشْتَغِلُون بـ«الثّقافـة»، إبْداعـاً وتَوزيعاً وتَنْشيطاً، «الثّقافـة» بوَصْفِهَا عَالَماً من الرُّمُـوزِ يَشْمَلُ الفنّ والعِلْم والدِّين) [١٨].

نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ سَبَبَ تَعَدُّدِ التّعْريفـاتِ لمُصْطلح «الثّقافة» فـي ضوء اهْتماماتِ المُثقّفين المُتَنَوِّعَة، والأنْشِطَةِ البشريّةِ المُتَعَدِّدَة، وطبيعةِ المرْحلةِ التي يعيشُها المُجْتمع، لنَخْلُصَ إلـى أنّ مُصْطلح «الثّقافة» مَرَّ بمراحِل مُخْتلفةٍ وفْـق طبيعة التّفاعُلات السّائدة فـي البيئـات المُخْتلفة، ولعلّنا لا نُبَالِـغُ إذا قُلْنَا إنّـه كان لا بُدَّ لهـذا المُصْطلح من عُبُورِ تلـك المراحِـل حتى يَبْلُـغَ «مَرْحلة النُّضْـج»، ويَسْتطيـعَ أنْ يَسْتَوْعِبَ طبيعـة «التَّلاقُحَاتِ المُجْتمعيّـة» فـي ضوء انْفِجَـارِ «المعارِف الحديثـة»، وآثارِها العميقةِ فـي حيواتِ النّاس وتَواصُلِهـم، وأنْمَـاطِ اقْتصادهم، وضُغُوطِ الحيـاة المُعاصِرة. بطبيعـة الحال ليس من أهْـدافِ هذا الكِتَـابِ أنْ يَدْلِفَ إلـى الإشْكَالاتِ اللّغويّـةِ والفِكْريّةِ والتّاريخيّـةِ والفلْسفيّةِ لمُصْطلـح «الثّقافة»، ولا يهمّنا هنا أنْ نُغْرِقَ القـارئ في تَعْريفاتِ «الثّقافة» التي لا حَصْرَ لهـا [٣١]؛ فالولـوجُ في «مَأْزِقِ المُصْطلـح» يَنْبَغِي أنْ يُؤخَذَ إلى نهايتـه للغَوْصِ في «أدبيَّات الثّقافة»، واسْتبطاناتِها الفَلْسفيّـة، وجُذُورِها التّاريخيّة، وارْتباطاتِها الماديّة، وتغيُّراتِها المُجْتمعيّة، وهذا في حَدِّ ذاته مجالٌ أكاديميٌّ وَاسِعٌ له رِجَالُهُ وفُرْسَانُه.

٢-٢-١) التّعْريفُ المُعْتَمَدُ لـ«الثّقافة»:

في رأْيي أنّ الأَمْرَ الأَهمّ والأبْرز فيما يَتَعَلَّقُ بمُصْطلح «الثّقافة» هو ما ذَكَرَهُ مالك بن نبيّ في أنّ: (مُشْكلة العالَم العربيّ والإسْلاميّ ليستْ مُنْحَصِرَةً في مُحَاوَلَةِ فَهْمِ «الثّقافة»، وإنّمـا في تَحْقيقِهَـا بصُورةٍ عمليّة) [٢٨]؛ ولذا فإنّه من المُهِـمّ أنْ نَضْبِطَ هنا «إطار عملٍ» لهـذا المُصْطلح، وأنْ نَتَعَرَّفَ على المُصْطلح بعـد أنْ بَلَغَ «مَرْحلة النُّضْج»، ونتعارفَ على أرْضيّةٍ مُشْتَرَكَةٍ نَسْتطيعُ أنْ نَبْنِيَ عليها الفَرْضِيّاتِ والاسْتِنتاجات، ونَسْتَمِدَّ منها مُقَوِّمَاتِ التّمْحيص، وعناصِر التّحْليل، وجُذُورِ التّعْليل.

اسْتنـاداً إلـى ما سَبَق، فـإنّ التّعْريفَ الـذي سنَعْتَمِدُهُ في هذا الكِتَـابِ هو التّعْريفُ الأشْمَـلُ والأعَـمُّ الـذي طَرَحْتُـهُ في «ورقـة عمـلٍ»[٢٤]، وهو يَجْعَـلُ من هـذا المُصْطلح: (المَخْـزُونُ المَعْرفـيُّ ومُسْتَودَعُ قِيَـمِ المُجْتمـع وأعْرَافِهِ وأحْكَامِـهِ ومَعَاييـرِهِ ومَفَاهِيمِهِ ومُعْتَقَدَاتِـهِ السَّائِدَةِ التي يَتَأَثَّرُ بها أفْرَادُ المُجْتمـعِ بمُخْتلفِ فِئاتهم - المُتَعَلِّمُ، والجَاهِلُ، والكَهْـلُ، والطِّفْـلُ، والمَرْأةُ، والرَّجُلُ -، وذلك بدرجاتٍ مُتفاوتِـةٍ وفْق اسْتِيعابِ كُلٍّ منهم، وحسب اتِّسَاعِ مَدَارِكِه، وبالتّالي يكونُ لـ«الثّقافة» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْديدِ سُلُوكيّاتِ الأفْراد، ورُدودِ أفْعالِهـم، وطرائِق تَفْكيرِهم). هذا التّعْريفُ هو الـذي اعْتَمَدَتْهُ «المُنَظَّمَةُ العربيّةُ للتَّربيـة والثَّقافـة والعلوم (أليكسو)» في تونس، وذلك في الدِّرَاسَـةِ التي نَشَرَتْهَا في عام ٢٠٠٦م تحت عنوان: (إسْتراتيجيّةُ نَشْرِ الثّقافة العِلْميّة والتّقانيّة في الوطن العربيّ)[٢٥].

بطبيعـة الحال إنّ مِثْلَ هذا «المَخْـزُونِ» من المَعْرِفَةِ والقِيَـمِ والأعْرَافِ والمفاهيم فـي أيِّ مُجْتمـعٍ لا يَنْمُو بين يـومٍ وليلةٍ، ولكنّه حَصِيلَـةُ تَرَاكُم خِبْرَاتٍ وتجـارِبٍ ومُؤثِّراتٍ تَفْعَـلُ فِعْلَهَا على فَتْرةٍ طويلةٍ من الزّمن؛ فتَتَجَذَّرُ بذلك في النُّفُوس، وتَرْسَخُ في اللاوعي، وتَحْتَـلُّ أغْوَارَ العَقْل، وتَتَأَصَّلُ في الوِجْدان؛ فيَرْضَعُ الإنْسانُ فِكْرَهَا صغيراً، ويَتَرَعْرَعُ على تفاعُلاتِها، ويَحْتَكِمُ إلى قَواعِدِهَا، فيَنْطَبِقُ عليها - في هذه الحالة - وَصْفُ مالك بن نبيّ حيـث يـرى أنّ: («الثّقافة» ليستْ عِلْمـاً يَتَعَلَّمُهُ الإنْسان، بَلْ هي مُحِيـطٌ يُحِيطُ به، وإطارٌ يَتَحَرَّكُ دَاخِلَـه، يُغَذِّي جنين الحضارة في أحْشَائِه، فهي «الوَسَطُ» الذي تتكوَّنُ فيه جميعُ خصائِـص المُجْتمع المُتَحَضِّر، وهي «الوَسَطُ» الذي تَتَشَكَّلُ فيـه كُلُّ جُزْئيّةٍ من جُزْئيّاتِه تَبَعَاً للغايةِ العُلْيَا التي رَسَمَهَا المُجْتمعُ لنفْسه)[٢٨].

تلـك الحقيقة، التي تَجْعَلُ من «الثّقافة» بِنْيةً - تحْتيّـةً ضروريّةً للتّفاعُلاتِ البشريّةِ ووسيلةً لتَشْكيلِ «العَقْل»، يُؤكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عمليّةَ التّفْكير ذاتها لا تَتِمّ إلاّ دَاخِلَ ثقافةٍ مُعَيَّنةٍ وبواسِطَتِهَا. والتّفْكيرُ بواسِطة ثقافةٍ ما مَعْنَاهُ: التّفْكيرُ من خلال مَنْظُومَـةٍ مَرْجِعيّةٍ تَتَشَكَّلُ إحْداثياتُها الأساسيّةُ من مُحَدِّدَاتِ هذه الثّقافة ومُكَوِّناتِها، وفي مُقَدِّمَتِهَا: المَـورُوث الثقافيّ، والمُحيط الاجْتماعيّ، والنَّظْرَة إلـى المُسْتَقْبَل، بَلْ النَّظْرَة إلى العَالَم، إلى الكَوْنِ والإنْسان، كما تُحَدِّدُهَا مُكَوِّنَاتُ تلك الثّقافة. ونحن عندما نتحدَّثُ

عـن «العَقْل العربيّ» في هـذا الإطار إنّما نَعْنِي بـه «الفِكْر»، أو «القُوَّة المُفَكِّـرَة» بوَصْفِهَا أداةً للإنْتـاج النّظريّ والفنّيّ والعِلْميّ صَنَعَتْهَا ثقافةٌ مُعَيَّنةٌ لها خُصُوصِيّتُهَا، هي «الثّقافة العربيّـة» بالذّات؛ الثّقافة التي تَحْمِلُ معها تاريخ العـرب الحضاريّ العامّ وتَعْكِسُ وَاقِعَهُم أو تُعَبِّرُ عنه وعن طُمُوحاتِهم المُسْتقبليّةِ كما تَحْمِلُ وتُعَبِّرُ – في الوَقْت ذاته – عن عَوائِق تقدُّمهِـم وأسْبـابِ تخلُّفِهم الرّاهِن)[١]، وهذا ما يُكَـرِّرُهُ إبراهيم البليهي حيث يقول: (لا عَقْل دون ثقافةٍ، فعَقْلُ الإنْسان يَتَكَوَّنُ بالحضانة الثقافيّة ولو حُرِمَ من هذه الحضانة حتّى يَكْبُـرَ فإنّه سيُحْرَمُ من اللّغة ومن كُلِّ الآليّات الثّقافيّة التي يَتَكَوَّنُ بها العَقْل، وسوف تَفُوتُهُ إمْكاناتُ دُخُولِ نِطاقِ العَقْل)[٣٦].

من ذلـك المُنْطَلَق، فإنّ ثقافـةَ أيِّ مُجْتمعٍ تَتَّسِـعُ وتَزْدادُ عناصِرُهـا تَعْقيداً، وتَنْمُو تراكُماتُهـا وتداخُلاتُها وتَرْكيباتُها، كُلّمـا انْتَقَلَ المُجْتمعُ إلى مراحِل أكْثر تَقَدُّماً وتَحَضُّراً ورفاهيـةً. ولـذا فإنّه من الطّبيعـيّ أنْ يكون لتعقُّـدِ المُتَغيِّـراتِ الاقْتصاديّـةِ والسّياسيّةِ والمَعْرفيّةِ والاجْتماعيّةِ وتشابُكاتِها – في العُقُودِ الأخيرة – تَأْثيرٌ مُباشِرٌ في نُموِّ «الثّقافة» وتَشَكُّلِهَا وتَطَوُّرِهَا، ويَتَّفِقُ هذا مع ما يراهُ تيري إيجلتون حين يقول: (إنّ مُعْظَمَ المُجْتمعات الحديثـة هي في حقيقة الأَمْـرِ مَجْمُوعةٌ من الثّقافات التّحْتيّة أو الفَرْعيّة المُتَداخِلَةِ حيث يَغْـدُو من الصُّعُوبَةِ بمـكانٍ أنْ نُحَدِّدَ العَالَـمَ الثّقافيّ المِعْيَاريّ الـذي تَنْحَرِفُ عنه ثقافةٌ فَرْعيّـةٌ مُعَيَّنَـة)[٣٧]. فـي ذلك الإطار نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّ «الثّقافـة» عِبَارَةٌ عن: (مَنْظُومَـةٌ مُتَشَعِّبَةٌ تَنْضَوِي تحت لوائِها وتتشابكُ في ساحاتِها مُخْتَلَفُ العناصِر المَعْرفيّة والفِكْريّـة، والمُقَوِّمَـاتُ الدِّينيّـة، والأنْمَـاطُ الحياتيّة، والعـاداتُ السّائِـدة، والسُّلُوكيّاتُ المُعْتَمَدَة، والأحْكَامُ المُهَيْمِنَة)[٣٤].

٢ - ٢ - ٢) التَّرْكيبُ العامُّ لـ«الثّقافة»:

فـي إطـار التّعْريف الـذي اعْتَمَدْنَـاهُ لمُصْطلح «الثّقافـة» نَسْتطيـعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على تَرْكيبتَيْن مُتباينَتَيْن لعناصِر «الثّقافة»؛ حيث تُهَيمِنُ على التّرْكيبةِ الأولى «عناصِر سَلْبيّة» ذات مفاهيـم ضَحْلَةٍ، وعاداتٍ عقيمـةٍ، وتَصَوُّرَاتٍ ضبابيّةٍ، تَعُوقُ حركـة المُجْتمع وتُؤدِّي

إلـى ضُمُورِ طاقاتِه وكَبْـحِ عُنْفوانِه، وهذه التّرْكيبةُ تَدْخُلُ في إطـارِ ما أَسْمَاهُ دافيد لاندز (David S. Landes) بـ«الثّقافات المُخَدِّرَة» لأنّها: (عَائِقَةٌ للذين هم مُتعَلِّقين بها، وهي ثقافـاتٌ يجدُ فيهـا أَصْحابُها العَزَاءَ والسّلـوان إلاّ أنّها تَعُوقُ قُدراتِهم علـى المُنَافَسَةِ في العَالَـمِ الحديث)[٢٧]. أمّـا «التّرْكيبةُ الثّانيةُ» من عناصِر «الثّقافـة»، فتَتَمَتَّعُ بـ«خصائِص إيجابيّـةٍ» ذات حيويّةٍ وفاعليّةٍ تكونُ بمَثَابَةِ قُوّةٍ دَافِعَةٍ للنُّمـوّ والتّرقّي والإبْداع والإنْتاج في مُخْتَلَـفِ مناحـي الحياة، وفي هـذا السِّياق يقولُ مالك بـن نبيّ: (إنّ أهميّـةَ الأَفْكار في حيـاة مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَجَلّى في صُورَتَيْن؛ فهي إمّـا أنْ تُؤثِّرَ بوَصْفِهَا عَوامِل نُهُوضٍ بالحياة الاجْتماعيّة، وإمّا أنْ تُؤثِّرَ على عَكْسِ ذلك بوَصْفِهَا عَوامِل مُمْرِضَةٍ تَجْعَلُ النُّموّ الاجْتماعيّ صَعْباً أو مُسْتحيلاً)[٢٨].

وهكـذا تَدْخُلُ «ثقافـةُ الإنْسان» إلى مَطْبَخِ «التّفاعُلِ البشـريّ» لتكون له أو عليه وفْق أُسُسِ هذه «الثّقافة» ومُعْطياتِها ودرجةِ ما أَسْمَاهُ مالك بن نبي «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»[٢٨]؛ فـ«الثّقافـة» كائِنٌ حَيٌّ يَنْمُو ويَضْمُـر، ويَشْقَى ويَسْعَد، ويَقْوَى ويَضْعُـف، وذلك وفْق أَحْوالِ أَهْلِهِ ومُمَارَسَاتِهِم وقِيَمِهم ومفاهيمِهم وأولويّاتِهم؛ ولذا فإنّ تَغَلْغُلَ الجراثيم إلى «أَنْسِجَةِ الثّقافة» أَمْرٌ وَارِدٌ، وفَتْكَهَا بقُدْرَاتِ المُجْتمع وتفاعُلاته قضيّةٌ مُحْتَمَلَةٌ، كما أنّ من المُمْكِن لـ«الثّقافة» أنْ تَبْلُغَ مرْحلـةً من الهُزَالِ والشّيخُوخةِ لتَتَكَالَبَ عليها عَوامِلُ التّآكُلِ الدّاخِليّ، والانْهِيـارِ الفِكْـريّ، والهزيمـةِ الحضاريّـة. لـذا كان من الضّـروريّ أنْ تقـوم «الثّقافة» بتَحْصيـنِ نفْسهـا، وتَطْويـرِ ذاتها، وتَجْديـدِ خلاياها، لتَسْتطيـعَ أنْ تُواكِـبَ المُتَغَيِّرات، وتَتَصَدَّى للتّحدّيات، وتُطَوِّرَ الإمْكاناتِ عبْر تراكُماتٍ قَادِرَةٍ على إحْدَاثِ التّأْثير المَطْلُوب، وخلال آليّاتٍ فَاعِلَةٍ تَعْمَلُ في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتَدْفَعُ «الحَرَاكَ الثّقافيّ» نحو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّـة»؛ فـ«الثّقافةُ» ليستْ تَرَفاً تُمارِسُـهُ المُجْتمعات، وتَتَسَلَّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ ولَيالي السَّمَر، ولكنّها تفاعُلٌ حياتيٌّ، وتَنْمَويٌّ، وفِكْريٌّ، واجْتماعيّ.

من نَافِلَةِ القول إنّ أيَّ ثقافةٍ إنْسانيّةٍ تَحْتَوِي - في مَنْظُومَتِهَا - على عناصِر من كِلْتا التّرْكيبَتَيْـن «السَّلْبيّـة» و«الإيجابيّة»، إلاّ أنّ تَفَوُّقَ ثقافةٍ على أُخْـرَى يَكْمُنُ في قُدْرتِها على تَقْليصِ دَوْرِ «التّرْكيبـة السَّلبيّة» من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْـرى تَطْويرِ إمْكاناتِ «التّرْكيبة

الإيجابيّة» عبْر المُرَاجَعَةِ الموضوعيّة، والتّقْييم النّزيه، والتّفاعُلاتِ الدّيناميكيّة، لإحْداثِ التّراكُمَاتِ السّليمة، وتوفيرِ العَوامِل المُسَاعِدَةِ والمُحَفِّزَةِ على تَمْكينِ «الثقافة» الفَاعِلَةِ اجْتماعيّاً، وتَنْمَويّاً، ومعيشيّاً. عبْر تلك الرُّؤية نَسْتطيع أنْ نَتَعَرَّفَ على نَوْعَيْنِ من المُجْتمعات؛ أحدهما تَغْلُبُ عليه خصائِصُ «ثقافةٍ مُتَخَلِّفَةٍ» تُقَيِّدُ حركته، وتَخْنُقُ قُدْراته، فتَمْنَعُهُ من التَّطَوُّرِ والنُّموّ والنّهْضَة، وتَدْفَعَ به نحو «ثقافةٍ اسْتِهْلاكيّةٍ» عَاجِزَةٍ ذات طبيعةٍ اسْتِسْلاميّةٍ وانْهِزَاميّةٍ، فهي تُكَرِّرُ ذاتها، وتَجْتَرُّ تخلُّفَها، وتَنْعَى وَاقِعَها. أمّا مُجْتمعاتُ «النَّوْع الثَّاني» فنجدُ أنّها تَحْظَى بهَيْمَنَةِ مُقَوِّمَاتِ «ثقافةٍ مُتَقَدِّمَةٍ» قَادِرَةٍ على التّجاوبِ مع احْتياجاتِ المُجْتمع وتحدّياتِ عَصْرِه، لتكون - في مُجْمَلِهَا - «ثقافةً مُنْتِجَةً» ذات عناصِر حَافِزَةٍ على الرُّقِيّ والتَّقَدُّم. وهكذا يُصْبِحُ المِحَكُّ الحقيقيُّ لجَدْوَى «الثّقافة» هو في تَمَكُّنِهَا من أداءِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» التي تَهْتَمُّ برَفْعِ المُسْتوى الاجْتماعيّ والمعيشيّ والفِكْريّ للفَرْد والمُجْتمع.

إنّ الرُّؤيةَ التي طَرَحَهَا مالك بن نبيّ[٢٨] في ما عَرَّفَهُ بـ«التَّرْكيب العامّ للثّقافة» مُنْطَلَقٌ مُناسِبٌ لتَلَمُّسِ «التَّفاعُلات الإنْسانيّة» التي تُبَلْوِرُ حياةَ الفَرْد، وتَصُوغُ مُجْتمعَه، وتُؤسِّسُ قِيَمَه، فقد حَصَرَهَا مالك بن نبيّ في عناصِر أرْبعة هي:

١) «عُنْصُرُ الأخْلاق» لتَكْوينِ الصِّلاتِ الاجْتماعيّة.

٢) «عُنْصُرُ الجَمَال» لتَكْوينِ الذَّوْقِ العامّ.

٣) «المَنْطِقُ العَمَليّ» لتَحْديدِ أشْكَالِ النّشَاطِ العامّ.

٤) «الصِّنَاعَةُ» وتَشْمَلُ العلوم والتّقْنيات والمهارات والمِهَن.

٢-٣) مُشْكلة الثّقافة:

في ضوء تفاعُلِ تَرْكيبَتَيْ «الثّقافة» - السَّلْبيّ منها والإيجابيّ - نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على «مُشْكلة الثّقافة» في المُجْتمعات المُخْتلفة؛ فلهذه المُشْكِلَةِ أبْعَادُهَا التّاريخيّةُ والاجْتماعيّةُ

والتّربويّةُ والفكريّةُ والدّينيّةُ في حُدُودِ الزّمان والمكان والخَلْفيّات والأَعْرَافِ السَّائِدَةِ في كُلٍّ من تلك المُجْتمعات، ولذا فإنّ لكُلِّ مرْحلةٍ من حياة المُجْتمع جَوانِب ثقافيّةً تُمَيِّزُ تلك المرْحلـة، وتُعَبِّرُ عن تحدّياتها، وتَرْسُمُ قَسَمَاتِهَـا، وتُبَلْورُ سُلُوكيّاتِ الأفْرَادِ ومُمَارَسَاتِهم، وهذا ما يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ فيقول: (كُلُّ واقِعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِهِ «قِيمةٌ ثقافيّةٌ» خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التَّنْفيذ)[٢٨]. من ذلك المُنْطَلَقِ يُؤكِّدُ مالك بن نبيّ على طبيعة التَّطَوُّرِ الكَامِنَةِ في «التّرْكيبـة الثّقافيّة» فيقول: (يجب أنْ نُحَدِّدَ «الثّقافة» في ضوء تصوُّرنا لوَضْعِهَا التّاريخيّ بوَصْفِهَـا حركةً مُسْتَمرّةً «صيرورة»؛ فإنّ في التّاريخ مُنْعطفـاتٍ هَائِلَةً خطيرةً يَتَحَتَّمُ فيها هذا التّعرُّف، والنَّهْضَةُ في العَالَمِ الإسْلاميّ إحْدى تلك المُنْعطفات)[٢٨]. إنّ هذا يَعْنِي أنّ طبيعة تطـوُّرِ المُجْتمعات الإنْسانيّة، وأشْكَالَ «التَّحَدّيات» التـي تُجَابِهُهَا، تَفْرِضُ ضُغُوطاً علـى «الثّقافة» السَّائِدَةِ فـي المُجْتمع، وتُمْلِـي مُعْطياتها على ظُـرُوفِ «التَّفاعُل» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَة»؛ فإذا أَخْفَقَتْ «الثّقافة» في التَّكَيُّفِ مع المُتَغَيِّرَاتِ الطّارِئة، وفَشِلَتْ في إفْرَازِ عناصِـر قَادِرَةً على خَلْقِ «المُواءَمة» واسْتِعَادَةِ «التّوازُن»، فإنّها تكون قد خَذَلَتْ مُجْتمعها، حيث ضَيَّعَتْ وظيفتها وفَقَدَتْ «الفّاعِليّة الاجْتماعيّة»، وبذلك تُصْبِحُ «ثقافةً مُتَخَلِّفَةً» تَشُدُّ مُجْتمعهـا إلى الخَلْف، وتَحْجِبُ عنه عناصِر الحيويّة والنّشاط، وبذا تَتَحَوَّلُ هذه «الثّقافة» إلى جَسَدٍ هَامِدٍ يُلْقِي بِثِقَلِهِ على حركةِ المُجْتمع، ويُقَيِّدُ إبْدَاعَاتِهِ وانْطِلاقَاتِه.

بطبيعـة الحال لا يُمْكِنُ اسْتِثْنَاء «المُجْتمعات العربيّة» من تلك التّفاعُلات الإنْسانيّة والسُّنن الكَوْنيّة، ولذا حَظِيَتْ – في العُقُودِ الأخيرة من القَرْن العشرين – «مُشْكِلَةُ الثّقافة» فـي العَالَمِ العربيّ بقَدْرٍ من الاهْتمام بين النُّخَب، واتَّخَذَتْ هذه المُشْكِلَةُ أشْكالاً مُتَعَدِّدَةً، فهي تَتَخَفَّى – أحياناً – تحت اسْم «أَزْمَة العَقْل العربيّ»، أو ثُنَائِيّات «الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» و«العَوْلَمَـة والخُصُوصيّة» و«النَّقْل والعَقْل» و«الاتِّبَاع والإبْـدَاع» «والأمميّة والوطنيّة»، وهي تَبْـرُزُ – تـارةً – على شَـكْل تَصَادُمَاتٍ مُباشِـرَةٍ مع وَاقِـعِ الحياة السّياسـيّ والاجْتماعيّ والاقْتصـاديّ، وهـي تَتَجَلَّى – هنا وهناك – فـي تَنَاقُضَاتٍ حَادَّةٍ ومُفَارَقَـاتٍ غريبةٍ تُشَوِّهُ الحياةَ السّياسيّـة والمُمَارَسَاتِ العمليّة والتّياراتِ الفِكْريّة والتّوجُّهَاتِ الاجْتماعيّة. إنّنا لا نَحْتَـاجُ إلى كبير جُهْدٍ لنُـدْرِكَ أنّ «الثّقافة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْمِ «رُوحِ

العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ تُمَثِّلُ جَوْهَرَ «التَّحَدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدَّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَل» وتُدْرِكُ مُقْتضياتِه، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ والمُعْطياتِ القَادِرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة»، وعلى رَأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العِلْم والتّقْنية» عُنْصراً مُؤثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة.

٢-٤) «الثّقافة» بين «النّخْبويّة» و«الجماهيريّة»:

مِن أبْرز ما يُطْرَحُ من مُشْكلات «الثّقافة» هو وقُوعُهَا بين مِطْرَقَةِ «النُّخْبَة» وسِنْدَانِ «الجُمْهُور»، إلاّ أنّه من الصَّعْبِ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الثّقافة النُّخْبويّة» وكأنّها ثقافةٌ ذات مُواصَفاتٍ فريدةٍ تَفْصِلُهَا عن مُجْتمعِها، وتَضَعُهَا في نِطَاقٍ شريحةٍ ضيّقةٍ مَعْزُولَةٍ عن تفاعُلاتِ مُحيطِها. وإذا كانتْ المراحِلُ البُدائيّةُ من تفاعُلاتِ المُجْتمعات تَسْمَحُ بما يُسَمَّى «ثقافة النُّخْبَة»، وتَدْفَعُ بها إلى بُرْجٍ عاجيٍّ يَعْزِلُهَا عن تفاعُلاتِ «الجماهير» وهُمُومِهم، فإنّ ذلك الوَضْعَ لم يعُدْ مُمْكِناً في ظُروفِ «الحياة المُعَاصِرة»؛ لأنّ القطيعة بين «الثّقافة النُّخْبَويّة» و«الثّقافة الجماهيريّة» أَصْبَحَتْ وَصْمَةً في حياة المُجْتمع الذي يُحَبِّذُهَا ويَرْعَاهَا، وعَقَبَةً على طريقِ «تَنْميةِ المُجْتمع» وتَطْويرِه؛ فانْفِجَارُ المَعْلُومات، وثَوْرَةُ الاتّصالات، والإعْلامُ الجديد، ومُقْتضياتُ «الحياة العَصْريّة» بتشابُكاتِها وتَعْقيداتِها، أزالتْ الكثير من الحَواجِز بين «الثّقافَتَيْن» وأَسْهَمَتْ في تقارُبِهما وتفاعُلِهما، بَلْ إنّ «العَوْلَمَةَ» اليوم تَفْرِضُ ما يُمْكِنُ أنْ يُسَمَّى «ثقافةً كَوْنيّةً» لها خصائِصها ومعاييرها وتَأْثيراتها.

وأمّا من النّاحية الوظيفيّة البَحْتَة، فإنّ «الثّقافة النُّخْبَويّة» تُصْبِحُ ثقافةً فَاشِلَةً إذا لم تَسْتَطِعْ أنْ تتجاوز «النُّخْبَةَ» لتتفاعل مع «الجُمْهُور»، فكما يرى قسطنطين زريق فإنّ: (الفَرْد والنُّخْبَة هما في تفاعُلٍ دائم مع مُجْتمعهما، فلا غِنَى لهما عن جماهير المُجْتمع كما لا غِنَى لهذه الجماهير عنهما. والإنْشَاءُ الحضاريُّ يَتَطَلَّبُ تجاوباً حيّاً صادِقاً بين الفريقَيْن، ولكن هذا الإنْشَاءَ يَنْطَلِقُ دوماً من خلايا الوَعْيِ والإبْدَاعِ الفَاعِلَةِ في المُجْتمع)[١٨]. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ زكي نجيب محمود وهو يَضَعُ تَعْريفاً لـ«المُثَقَّف» فيقول: (هو أنْ يكون رجلاً بضاعته

أفْـكارٌ يُريـدُ بها أنْ يُغَيِّرَ وَجْـهَ الحياة إلى ما هـو أَفْضَل)[٣٨]، ومن نَافِلَـةِ القول أنّ ذلك «التَّغْيير» لن يَحْدُثَ عبْر الانْعِزاليّة أو النُّخْبَويّة أو الاسْتِعْلاء؛ وكُلُّها صِفَاتٌ يَميلُ إليها كثيرٌ من المَحْسُوبين على التّيارات الثّقافيّة في العَالَمِ العربيّ.

وانْطِلاقـاً من الحقيقـة التي يَصُوغُهَـا محمد عابـد الجابـريّ[١] بقوله: (النَّهْضَةُ الثّقافيّـةُ وتَطَـوُّرُ الفِكْرِ وتَقَدُّمُـهُ إنّما يَتِمّان عبْـر عمليّة تَرَاكُمٍ كَمِّيّ)، فـإنّ ذلك يُؤدِّي - بالضّـرورة - إلى عَلاقَـةٍ عُضْويّةٍ بين «النُّخْبَـة» و«الجُمْهُور» يراها الجابـريّ على النَّحْوِ التّالـي: (إنّ الازْدهار الثقافـيّ هو فِعْلاً من عمل النُّخْبَة، ولكـن لا النُّخْبَة التي تَطْفُو على السَّطْـحِ ويُمْكِـنُ تِعْدَادُ أفْرَادِهَا، بَـلْ النُّخْبَة التي تَلْتَحِـمُ قَاعِدَتُهَا العريضـةُ بكُلِّيَّةِ جِسْمِ المُجْتمـع لتُمَثِّلَ مُخْتلف فِئاتِه وطبقاتِه، وتُعَبِّرَ عن آلامِه وآمالِه، وتَعْمَلَ على تَنْشيطِ عمليّة الانْصِهَارِ دَاخِله، وتَحْريكِ مكامِنِ القُوّةِ والخُصُوبَةِ في أحْشَائِه)[١].

ولا شـكّ في أنّ مـن أبْرز بَصْمَـاتِ «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»، وما أَحْدَثَتْـهُ من آثَارٍ بليغـةٍ في حياة البشـر، أنّها أَسْهَمَتْ الإسْهَامَ الأكْبر في تَصَدُّعِ ذلك الحَاجِز الذي كان يَجْعَلُ «المُثقَّـفَ» يَأْنَسُ في بُرْجِهِ العاجيّ مُنْعَزِلاً ومُهْتَمّاً بـ«المَعْرِفَةِ من أجْل المَعْرِفَة»؛ فقد سَمَحَتْ وسائِـلُ الاتِّصالِ الحديثـة للجُمْهُورِ بأنْ يُسْهِمَ - عبْـر شرائِحِهِ المُتَنَوِّعَـة، ووعيه المُتزايد، واهْتماماتـه المُتَعَدِّدَة، وتفاعُلاتِه المُتَداخِلَة - فـي تَشْكِيلِ «الثّقافة»، كما أنّها فَتَحَتْ النّوافِذَ على مَصَارِيعِهَا لـ«ثقافةٍ كَوْنيّةٍ» في «عَصْرِ العَوْلَمَة». بطبيعة الحال ستكون هذه «النُّخْبَةُ» أكْثر انْعِـزالاً وأشـدّ تَقَوْقُعاً إذا وَقَعَتْ تحت تَأْثير «الأُمِّيّة العِلْميّة»، فمـن السَّهْلِ لنا أنْ نَتَصَوَّرَ حال «الثّقافـة» التي يَطْرَحُهَا مِثْل ذلك «المُثقّـف النُّخْبَويّ» وهو يُبْحِرُ بعيداً عن طبيعة التّفاعُلات التـي تُشَـكِّلُ «الحياة المُعَاصِـرَة»، ويَسْبَـحُ عَكْسَ تيّار «حركـة المُجْتمع» السّاعيـة نحو آفاقٍ مُسْتقبليّةٍ تَحْمِلُ تحدّياتٍ مُتَجَدِّدَةٍ، ومُشْكلاتٍ عِلْميّةٍ، وقضايا تِقَنِيّةٍ، وخصائِص فِكْريّة.

لقـد أَسْهَمَ اتِّسَـاعُ رُقْعَةِ التّعْليم، وانْتِشَـارُ وسائِل الإعْلام، وتَعَـدُّدُ منافِذ «التّواصُل الاجْتماعـيّ»، إسْهامـاً كبيراً فـي رَفْعِ وَعْـيِ الجماهير، وتَعْميـقِ إدْراكهـم بمُشْكلاتِهم، وفَهْـمِ طبيعة التّحدّيات المُحيطة بهم، والتّفاعُـلِ مع مُتَغيِّراتِ زمانهم وأدواتِ عَصْرهم،

واسْتِيعـابِ الفَوارِق الشّاسِعَةِ بين وَاقِعِهم ووَاقِعِ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»؛ ولذا فإنّنا نَشْهَدُ انْكِمَاشـاً مُطَّـرِداً لدَوْرِ «المُثقَّف النُّخْبَـويّ» الذي يَحْرِصُ على البقاء فـي بُرْجِهِ العاجيّ، مُكَرِّسَـاً حياته لفنونه ومعارِفِه واهْتماماتِه الفِكْريّـة بمَعْزِلٍ كَامِلٍ عن التّأْثِيرِ في المُجْتمع والتّفاعُلِ مع قضاياه. وبتأمُّلٍ أكْبر لوَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَة» نجدُ أنّ «الثّقافة» ليستْ مِهْنَةً بحيث يُكَـوِّنُ «المُثقَّفُون» طَبَقَةً أو شريحةً اجْتماعيّةً مُحَـدَّدَةَ الملامِح والاهْتمام؛ فهناك مُثقَّفُون في جميع الطّبقات الاجْتماعيّة والمِهَن العمليّة في المُجْتمع؛ فقد يكون «المُثقّفُ» تَاجِـراً، أو ضَابِطـاً، أو مُهندسـاً، أو طبيباً، أو مُوظَّفـاً، أو عَالِمـاً، وبطبيعة الحال سوف تتفـاوتُ مُسْتوياتُ ثقافتِهـم ونَوْعِيّتهَا وتَوَجُّههَا تَبَعـاً للخَلْفيّةِ الفِكْريّـةِ والتّأْسيسِ العِلْميّ والتّجْرِبـةِ الحياتيّة، ولكنّهم جميعهم يَشْتَرِكُون كـ«مُثقَّفين» في الاهْتمامِ بـ«الشَّأْن العامّ»، والتّعْبيـرِ عن هُمُومِ المُجْتمع وقضاياه، والإسْهَامِ في تَفْعيلِ أدواتِه وتوظيفِ مَوارِدِه، وهذا مـا يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (إنّ «الثّقافة» تَتَدَخَّلُ في شُؤون الفَرْد، وفي بِنَاءِ المُجْتمع، وتُعالِجُ مشاكِل القيادة كما تُعالِجُ مشاكِل الجماهير)[٢٨].

وهكـذا نَخْلُصُ إلـى أنّ «النُّخْبَويّة» التي تُؤدِّي إلى انْفِصَـامِ «المُثقَّف» عن مُجْتمعه، وعَجْـزِهِ عن «الالْتِحَـامِ العُضْويّ» مع تطلُّعاتِ المُجْتمع وقضاياه، هـي في انْحِسَارٍ مُسْتَمرٍّ بسبـب تسارُعِ المُتَغيِّـراتِ على السّاحة العَالَميّة في كُلِّ مجـالٍ، والضُّغُوطِ المُتزايدةِ على «المُثقَّـفِ» لامْتِلاكِ القُـدْرَةِ على التّأْثير العامّ، وتوجيهِ «الحَـرَاكِ الثّقافيّ» إلى «الفَاعِليّة الاجتماعيّـة»، وتوفيرِ «البُنى التّحْتيّة الثقافيّة» القَادِرَةِ على الاسْتِجَابَةِ للتّحدّياتِ التّنْمَويّةِ والإشْـكالاتِ المُعَاصِرَةِ والمُسْتَجِدَّاتِ العَالَميّـة. وهذا ما يُبْرِزُهُ توماس إليوت عندما يرى أنّ شَكْلَيْ الثّقافـة، «النُّخْبَويّ» و«الجماهيريّ»، يتهاجنان فيقول: (من الواجب النَّظَرُ إلى هذا المُسْتوى الأعْلى من «الثّقافة» على أنّه قَيِّمٌ بحَدِّ ذاته، ويُمَثِّلُ إغْنَاءً للمُسْتويات الدُّنْيا فـي آنٍ معاً، وبـذا تتواصلُ حركة «الثّقافـة» في نَوْعٍ مـن الحَلْقَةِ حيث تُخَصِّـبُ كُلُّ طَبَقَةٍ الطَّبَقَةَ الأُخْرَى وتُغَذِّيها)[٢٧].

ذلـك الدَّوْرُ الأساسُ الفَاعِلُ لـ«المُثقَّف» هـو الذي رَسَمَ زكي نجيب محمود ملامِحه بشَـكْلٍ عامٍّ عندما قال: (وأظنُّهُ قد بـات وَاضِحاً ماذا تكونُ المُهِمّة الأولى للمُثقّفين؟، إذْ

هي قبل أيِّ شيءٍ آخَر، وبعد أيِّ شيءٍ آخَر، مُهِمّة «التّنْوير» التي تُضِيء ولا تُرْغِم، ونجاحُها مَرْهونٌ بأنْ تَتَوَلَّدَ في قُلُوبِ النّاس «إرادةٌ» تَرْغَبُ من تِلْقَاءِ نفْسها فيما يُرادُ لهؤلاء النّاس أنْ يَرْغَبُوا فيه، وإذا قُلْنَا ذلك فقد قُلْنَا - بجُمْلةٍ أُخْرَى - إنّ مُهِمّةَ المُثقّفين هي أنْ يَمِيلُوا بالنّاس نحو أنْ يَسْتَبْدِلُوا بمَجْمُوعَةِ قِيَمٍ عتيقةٍ كامِنَةٍ في صُدُورهم، مَجْمُوعَةً أُخْرَى من القِيَمِ الجديدةِ الصّالِحَةِ للمَوْقِفِ الجديد في العَصْرِ الجديد)[٢٠]. أمّا عند مالك بن نبيّ فتتلاقحُ وتتضافرُ «النُّخْبَويّة» و«الجماهيريّة» في «الثّقافة» عبْر وظيفتِها فيقول: (إذا ما أردنا إيضاحاً أوسع لوظيفة «الثّقافة» فلنُمَثِّلْ لها بوظيفة الدَّم، فهو يَتَرَكَّبُ من الكُرَيّاتِ الحمراء والبيضاء، وكِلاهُمَا يَسْبَحُ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من «البلازما» ليُغَذِّي الجَسَدَ: فـ«الثّقافةُ» هي ذلك الدَّمُ في جِسْمِ المُجْتمع، يُغَذِّي حضارتَه، ويَحْمِلُ أفْكارَ «النُّخْبَة» كما يَحْمِلُ أفْكارَ «العَامَّة»، وكُلٌّ من هذه الأفْكارِ مُنْسَجِمٌ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من الاسْتِعْداداتِ المُتَشابِهَة، والاتِّجاهاتِ المُوحَّدَة، والأذْواقِ المُتَناسِبة)[٢]. وفي السِّياق نفْسه يَطْرَحُ إسماعيل سراج الدين دَوْرَ «المُثقَّف» ومَسْؤوليته بقوله: (يَظَلُّ «المُثقّفُ» هو العَيْنُ التي يرى من خلالها المُجْتمع ذاته. فوظيفته هي تَحْليلُ الظَّواهِر، ومُناقشةُ التُّراث، وتَلْقيحُ الأفْكارِ في صُورةٍ عَصْريّةٍ، ونَقْلُ تَجْرِبةِ الآخَر الإبْداعيّة وتَشْكيلُها في صُورةٍ محليّةٍ، وإعادةُ صَوْغِ فِكْرِ المُجْتمع وتوجُّهاته، لا تَقْبَلُ الوَضْعَ الرّاهِنَ أيّاً يكنْ. لذا يجبُ أنْ يكون «المُثقَّفُ» ناقِداً لما حوله، مُتَطَلِّعاً إلى الأفْضل، مُطَالِباً به)[٣٩].

٢-٥) «الثّقافة» و«العَوْلَمَة»:

لقد فَرَضَ «مَفْهُومُ العَوْلَمَة» حُضُورَهُ على السّاحة، وتناولتْهُ بالتّعْريفِ والتّحْليلِ والتّقْييم أقْلامٌ مُتخصِّصةٌ، وأُخْرى مُهْتَمَّةٌ بأحْوالِ مُجْتمعاتِها في الشَّرْقِ والغَرْب، وبطبيعة الحال لم يكنْ «المُثقَّفون العرب» اسْتِثْنَاءً للقَاعِدَةِ حيث وجدُوا في هذا المُصْطلحِ وليمةً دَسِمَةً، فانْقَضُّوا عليها بين مُؤيِّدٍ ومُعَارِضٍ ومُتَرَدِّدٍ، وكالعادة تَمَيَّزَ «الطَّرْحُ العربيّ» بأرْتَالٍ من الكلماتِ المُنَمَّقَةِ والعِباراتِ الجَزِلَةِ والأساليبِ البلاغيّةِ والمَزاعِم الحماسيّة، وكالعادة - في «الخِطَابِ العربيّ» - فَقَدَتْ الكلماتُ معانيها، وضَاعَتْ مضامينُها، في

طُوفـانِ المُبَالَغَاتِ والمُسَاجَلاتِ والسَّرْدِيَّات. إنّ المُتَابِعَ لحِـواراتِ «العَوْلَمَةِ» وطُرُوحاتِها في العَالَمِ العربيّ يَشْعُرُ أنّ مُعْظَمَ المُشاركين يتحدَّثُون عن مَأْزِقٍ وَقَعَتْ فيه الأُمّة؛ فمنهم مـن يرى أنّ الخُرُوجَ من المَـأْزِق، الذي فَرَضَتْهُ هَيْمَنَةٌ خَارِجيّةٌ، هـو برَفْضِ تلك الهَيْمَنَةِ وتَبِعَاتِهَـا، ومنهم من يَحْسَبُ أنّ المَأْزِقَ حقيقةٌ لا مناص عنها وليس للمُضْطَرّ إلاّ رُكُوبُهَا؛ إمّـا عبْـر قَبُولِهَا بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا، وإمّـا عبْر «عمليّةٍ انْتِقائيّةٍ» لا يـزالُ كثيرٌ من معالِمها خَافِيـاً علـى دُعاتِهـا ومُؤيِّديهـا لنقع - مَـرّةً أُخْرى - في شِبـاكِ تلك المُعْضِلَـةِ القديمةِ المُتَجَدِّدَةِ المَعْرُوفةِ باسْم «إشْكَالِيّة التُّرَاث والحَدَاثَة».

وكأيِّ قضيّةٍ مَطْرُوحةٍ للفَهْمِ والاسْتِجْلاء، فإنّه يَنْبَغِي تَمْحيصُ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَةِ» من وَاقِـعِ خصائِصِها ومُسَبِّباتِها وآثارِهـا ومُكَوِّناتِها؛ ولتيسيرِ «عمليّة التَّحْليل» يُمْكِنُ أنْ نَلْجَأَ إلـى عُنْصُرَيْن أسَاسَيْن في «التَّرْكيبة الذَّاتيّـة» لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»؛ فيجبُ - أوّلاً - اعْتِبَارُ «الجَانِـبِ الإنْسانيّ» الذي تُشَكِّلُـهُ «الطَّبيعةُ البشريّة» ودَوافِعُهَـا وتفاعُلاتُها، وهو الجَانِبُ الذي يَمْنَحُ ظَاهِرَةَ «العَوْلَمَـةِ» ثِقَلَهَا الفِكْريّ والاجْتماعيّ والإعْلاميّ. وأمّا العُنْصُرُ الثّاني فـي «تَرْكيبة العَوْلَمَة» فهو ضـرورةُ التّأمُّلِ - بدِقَّةٍ وانْضباطٍ - في نَوْعِ «الوَقُودِ» الذي يَمْنَحُ هـذه الظّاهِرَةَ القُوّةَ الدّافِعَة، والتّأْثيرَ المُتزايـد، والثِّقَلَ المُتنامي في مُخْتلف السّاحات. أمّـا علـى صعيد «الجَانِبِ الإنْسانيّ» البَحْت، فإنّه ممّـا يُسْتَنْكَرُ على مُثقّفينا ما أثارُوه من الصَّخَبِ والضَّجيج، وما تَمخّضَ من «رُدودِ فِعْلٍ» تعاملتْ مع «العَوْلَمَة» وكأنّها وَحْشٌ كاسِرٌ، انْقَضّ فجأةً على وعْينا الهادئ وحياتِنا المُسْتقرّة ليُهَدِّدَ مُحْتوياتِهما وأُطُرِهما؛ فالحقيقةُ أنّ «العَوْلَمَـةَ» ليسـتْ بالأمْـرِ الطّارِئ على تاريـخ البشر؛ فهي قد رافقـتْ الإنْسان - منذ البدايـة - بدرجاتٍ من التّأْثيرِ مُتفاوِتَةٍ؛ لأنّهـا تَتَمَثَّلُ في نُزُوعِ «ثقافة الغَالِب» إلى الهَيْمَنَةِ وانْسِيـاقِ الآخَريـن إليها، وهذا ما أَخْبرَنَـا به عبد الرحمن بن خلدون منـذ أمدٍ طويلٍ أنّ: (النّفْـس أبداً تَعْتَقِدُ الكَمَالَ في من غَلَبَهَا وانْقَـادَتْ إليه إمّا لِنَظَرِهِ بالكَمَالِ بما وَفُرَ عندها من تَعْظيمِه، أو لِمَا تُغَالِطُ به من أنَّ انْقيادِها ليس لغُلْبٍ طبيعيٍّ، إنَّما هو لكَمَالِ الغَالِب)[٤٠].

جَوْهَـرُ القضيّـة - إذاً - أنّ «العَوْلَمَةَ» هي البَصْمَةُ التي يُصِـرُّ «الغَالِبُ» على طَبْعِهَا فـي حياةِ «المَغْلُوبِ»، وقد كان هذا هو السّائِد - وما زال - في تدافُعِ البشر وصِراعاتِهم،

وهـذا مـا يُؤكِّدُهُ برهان غليون بقوله: (الاتِّجاه نحو دَمْجِ العَالَـمِ في مَنْظُومةٍ وَاحِدَةٍ قديمٌ قِدَمَ الحركاتِ والتَّوسُّعاتِ الإمْبراطوريّة)[٤١]. ولذا نجدُ أنّ أحد أبْرز أشْكَالِ الشّكْوى من «العَوْلَمَة» هي في اتِّهامِها بأنّها «أَمْرَكَةٌ»، وتَنْطَلِقُ هذه الشّكْوى - بِحِدَّةٍ - من دُول «العَالَمِ الثّالـث»، وتَقِـلُّ درجةُ حِدَّتِهَا كُلّما ارْتَفَعَتْ الأُمّةُ في سُلَّمِ القُوّةِ والتّأْثير، فهي - على سبيل المِثـال - موجودةٌ - بشَكْلٍ عامٍّ - في «الخِطَابِ الثّقافـيّ الفرنسيّ»، ولكنّها أكْثر رصانةً، وأقلّ انْفعالاً، وأهْدأ نغمةً. وأمّا تَطَابُقُ مُصْطلحِ «العَوْلَمَةِ» مع مَفْهُومِ «الأَمْرَكَة» في أذْهانِ كثيرٍ من النّاس فإنّه لم يَأْتِ من فَرَاغٍ؛ فالحُضُورُ الأمريكيّ الكثيف - في مجالات الاقْتصاد والعلـوم والتّقْنية والمَعْلُومات والاتّصالات والإعْلام - كان كفيلاً بتَغَلْغُلِ مُعْطياتِ «الحياة الأمريكيّة» وثقافتِها في مُخْتلفِ المجالاتِ على السّاحةِ العَالَميّة، وكما يقولُ برهان غليون فإنّ: («الثّقافة المُسَيْطِرَة» لا تَحْتَلُّ مَوْقِعَهَا المُتَفَوِّقَ بسبب تَفَوُّقِ مَنْظُومَةِ قِيَمِهَا الأخْلاقيّة أو الدِّينيّـة أو الفنيّة، ولكـن لأنّها ثقافة «المُجْتمعات المُسَيْطِـرَة»)[٤١]. وأمّا ما هو أَدْهَى من ذلك وأَمَرّ، ممّا يَقَعُ في غياباته «المُثقَّفون العرب» بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ، فهو أنّ دَوْرَ هذه «الثّقافة المُسَيْطِرَة» لم يَقْتَصِرْ لديهم على قَبُولِهَا والحماسِ لها في أُطُرٍ عِلْميّةٍ أو مَعْرفيّةٍ أو اقْتصاديّةٍ، ولكنّهم جعلوها معاييرَ وضَوابِطَ ومُنْطلقاتٍ يَحْكُمُون بها على المُصْطلحاتِ الشّرْعيّـة، ويَبْتَسِـرُون بها أَحْـكَامَ الدِّين وأَعْـرَافَ المُجْتمع، مِثْل بعض مفاهيم «حُقُوقِ الإنْسـان» و«حُقُوقِ المَرْأة» و«حُقُـوقِ الطِّفْل» و«الحُقُوقِ السِّياسيّـة» وغيرها. لقد أدَّى هذا المَوْقِفُ المُنْبَهِرُ والمُتَخَاذِلُ إلى أَثَرَيْن شَدِيدَيْ السَّلبيّة؛ فهو - أوّلاً - أدَّى إلى تصادُم هذه «النُّخْبَـة» بقِيَم مُجْتمعاتها واسْتِفْزَازِ أهْلها، وهو - ثانياً - شَجَّعَ أصْحَابُ «الثّقافة الغَالِبة» أنْ يَجْعَلُـوا من مبادئِهم وسياساتِهم وقِيَمِهم ومعاييرِهم مُنْطلقاتٍ وأُسُسٍ يُحَاكِمُون عليها الدُّول والشُّعوب، ويُمْلُون شُرُوطَهُم السّياسيّة والاقْتصاديّة والحُقُوقيّة وغيرها.

ولعـلّ مـن المُهِـمّ أنْ نَلْحَظَ أنّـه بالرّغْم من تَقَدُّمِ كثيـرٍ من المُجْتمعـات الأوروبيّة واشْتراكِهـا مـع أمريكا في ثقافتِها وقِيَمِهـا ونِظامِها، فإنّ التَّذَمُّرَ بيـن شرائِح وَاسِعَةٍ في تلك المُجْتمعات - بنبراتٍ مُتفاوِتَةٍ - وَاضِحٌ لذلك الحُضُورِ الأمْريكيّ المُهَيْمِن، فما بالك بمُجْتمعاتٍ مُتَخَلِّفَةٍ في عناصِر الإنْتاج، ومُخْتلفةٍ في طبيعة الثّقافة والقِيَم؟. هذه الحقيقةُ

تُعْطِي دَلالةً وَاضِحَةً على أنّ قضيّةَ «العَوْلَمَة» في أحد جَوانبها الأساس «قضيّةٌ إنْسانيّةٌ» حيث يَفْرِضُ «الغَالِبُ» مُعْطياتِه وشُرُوطَه، ويَنْسَاقُ «المَغْلُوبُ» إليها بدرجاتٍ مُخْتلفةٍ من المُقاومَة. وبالرّغْم من تَشَابُكِ التّأْثيراتِ وتَعَقُّدِ الظّاهِرَةِ إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - مُحَصِّلَةٌ طبيعيّةٌ لعُنْصُرَيْ «العَوْلَمَة» بجانِبها «الإنْسانيّ» المَحْضِ من ناحيةٍ، و«دَفْعِها الذّاتيّ» من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك بواسِطَةِ «الوَقُودِ» المُمَيِّزِ لتَرْكيبتِها، وهو الذي جعل لها دَلالاتٍ وأبْعَاداً لم تكنْ لتَخْطُرَ على بالٍ، وهذا يقودُنا - بالضّرورة - إلى السُّؤال: (ما هو هذا «الوَقُودُ» المُمَيِّزُ لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»؟).

٢-٥-١) بداية «العَوْلَمَةِ الحديثة»: العُلُومُ الطّبيعيّة:

لكي نَتَعَرَّفَ على خصائِص «وَقُودِ العَوْلَمَة» يَنْبَغِي الانْتِبَاهُ إلى أنّه بالرّغْم من أنّ «مَفْهُومَ العَوْلَمَة» بدا كاسِحاً وقويّاً في العَقْدِ الأخير من القَرْنِ العشرين إلاّ أنّ بَوادِرَهُ بَزَغَتْ قبل ما يَرْبُو على ثلاثة قُرُونٍ عندما بدأتْ مُعْطياتُ «العلوم الطّبيعيّة» تَتَبَلْوَرُ، وراحتْ آثارُها الحياتيّةُ والإنْتاجيّةُ تَغْزُو مَعَاقِلَ الأنْمَاطِ القديمةِ للإنْتاجِ والتّعامُلِ والتّفْكير. لقد بَدَأَتْ «العلومُ الطّبيعيّةُ» بعَوْلَمَةِ نفْسها، وذلك بتوحيدِ مُصْطلحاتِها ومقاييسِها وأدواتِها؛ فانْدَفَعَتْ في رُؤيةٍ مُوَحَّدَةٍ دون تَمْييزٍ من جِنْسٍ أو عِرْقٍ أو دِينٍ، وهَزَمَتْ الحُدُودَ الجُغْرافيّةَ والمَعَاقِلَ التّقْليديّةَ لتُصْبِحَ نَمُوذَجاً تتنادى إليه المُجْتمعات؛ وحتّى أولئك الذين لم يُسْعِفْهُمْ وَاقِعُهم على اسْتِيعابِها وتَطْويعِها، فإنّهم لم يُقَصِّرُوا في شِرَائِهَا واسْتِجْدَائِهَا واسْتِهْلاكِ مُنْتَجَاتِهَا. لقد حَوَّلتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» المُجْتمعاتِ المُتَبَاعِدَةَ - جُغْرافيّاً وثقافيّاً وقِيميّاً - إلى قريّةٍ صغيرةٍ تتشابكُ فيها المصالِح، وتتصارعُ فيها التّيارات، وتتفاعلُ معها المُؤثِّرات، ويَتَيَسَّرُ لها انْتِقَالُ المَعْلُوماتِ دون قَيْدٍ أو شَرْطٍ، فبَلَغَتْ بذلك «العَوْلَمَةُ» أشُدَّهَا، ودَخَلَتْ كُلَّ دارٍ دون اسْتِئْذانٍ، وهذا ما يُشيرُ إليه برهان غليون عندما يقول: (إنّ «العَوْلَمَةَ» لا تُرْفَضُ ولا تُتَقَبَّلُ بالمُطْلَقِ لأنّها لا تَتَعَلَّقُ فقط بظَاهِرَةٍ ذاتيّةٍ، ولكن أيضاً بظَاهِرَةٍ موضوعيّةٍ خَارِجَةٍ عن إرَادَةِ الأفْرَادِ هي «الثَّوْرَة التّقنيّة العِلْميّة»)[٤١].

وهكـذا كان مـن البدهـيّ أنْ يُمْسِـكَ بتلابيـبِ «العَوْلَمَـةِ»، ويقـودَ مسيرتَها، ذلك الطَّـرَفُ الـذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلـوم والتّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهـا لأَغْرَاضِهِ وفِكْرِهِ ومصالِحِـه؛ وأمّا أولئـك الذين اعْتَقَـدُوا أنّهم يتصـدّون لسَلْبيّاتِ «العَوْلَمَـةِ» بالقصائِدِ والإنْشائيّاتِ والحماسيّاتِ، فإنّهم يعيشـون خَارِجَ ضَوابِطِ «الزَّمان» و«المكان»، وسيَبْقُون مُجَـرَّدَ «ظَاهِرَةٍ صَوْتِيّـةٍ» لا تُقَدِّمُ ولا تُؤَخِّرُ، ولكنّها فقط تُحَـاولُ عبثاً التّصدِّي - بقَوارِب مُتَهالِكَـةٍ مـن خَشَبٍ - لطُوفانٍ من الأمْـواجِ مُتلاطِم. فعندما تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ العَوْلَمَة» في الغَـرْب، فإنّه قد نَضِجَ على نارٍ هادِئةٍ، وانْبثَقَ عن وَاقِعٍ يَفْهمونه، ويُؤثِّرون فيه، ويصوغون نتائِجه؛ وعندما صَدَمَنَا هذا المُصْطلحُ في العَالَم العربيّ، وأثار هَلَعَنَا، وأوقظ هَواجِسَنَا، كانـتْ هذه الخلجـاتُ والانْفعالاتُ تَرْجَمَةً صَادِقَـةً لوَاقِعٍ مُتخاذِلٍ يَتَأَرْجَـحُ بين «ثُنَائِيّاتٍ» غَامِضَةٍ عن «التُّرَاث والحَدَاثَة» و«العَوْلَمَة والخُصُوصيّة» وغيرهما، ويَقْتَاتُ على مُعْطياتِ الآخَريـن، ويَتَتَرَّسُ خَلْفَ حَواجِـز كثيفةٍ تَحْجِبُ عنه الرُّؤية الحقيقيّـة لما يدُورُ حوله من تَحَوُّلاتٍ مُتسارِعةٍ، وتَغَيُّرَاتٍ جِذْريّة[٤٢].

٢-٥-٢) أخْطاءُ «الخِطَاب العربيّ»:

لقد أَخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في تَعَامُلِهِ مع «العَوْلَمَةِ» ثلاث مَرَّاتٍ؛ فهو أَخْطَأَ عندما حَسِـبَ أنّها شَـرٌّ مُطْلَقٌ يَنْبَغِـي مُحَارَبَتُه، وهو أَخْطَـأَ عندما ظَنَّ أنّها خَيـرٌ مَحْضٌ يَنْبَغِي الارْتِمَـاءُ فـي أحْضَانِه، وهو أَخْطَأَ عندمـا اعْتَقَدَ أنّه سيُفْلِحُ في «عمليّـة الانْتِقَاء» فيَخْتَارُ منهـا ما يُناسِبُه، ويَمْنَعُ بجَرَّة قَلَم ما يَكْرَهُه، فراح يَتَأَرْجَحُ بين «ثُنَائِيّاتٍ» مُبْهَمَةٍ، و«رُدود فِعْلٍ» مُضَّطَرِبَة. لقد أَخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في كُلِّ تلك المَواقِف؛ لأنّها - ابْتِداءً - كانتْ كالعـادة مُجَرَّدَ «رُدود فِعْـلٍ» خَالِيَةً من الرُّؤية الإسْتراتيجيّـة، وخَاوِيَةً من العمل المُنَظَّم؛ ولأنّهـا - انْتِهاءً - لـم تَسْتَوْعِبْ حقيقةَ «العَوْلَمَةِ» ومضامينَها، ولـم تُدْرِكْ طبيعةَ «الوَقُودِ» الذي يَدْفَعُ هذه الظّاهِرَة، ويُزَوِّدُهَا بالطّاقة والحيويّة.

وأمّـا قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، فهي أنّ «الخِطَابَ العربـيَّ» يَعْتَقِدُ جَادّاً أنّ له في الأَمْر خِياراً، وغَابَتْ عن مداركِه أنّه لا يَمْلِكُ مفاتيحَ التّأْثيرِ في الظّاهِرَة، أو إعادةَ صِياغتِها، أو تعْديلَ

وِجْهَتِهَا؛ فبَقِيَ حالُه - في نهاية المطاف - حال العَاجِزِ الذي يَشْتَكِي ويُوَلْوِلُ، ولكنّه يَبْقَى عَاجِزاً لا حِيلة له إلاّ التّمنّي والتّنْظير، وتحمُّل العَواقِب السّلْبيّة، ودَفْع ضريبة التّخلُّف. ويُعَقِّبُ برهـان غليـون على حقيقة أنّ «لا خِيار في أَمْرِ العَوْلَمَة» فيرى ضرورة أنْ يَحْصُلَ الانْخِرَاطُ فيهـا بصُورةٍ إيجابيّةٍ عبْـر: (بَلْورة إسْتراتيجيّةٍ ذاتيّـةٍ وخاصّةٍ للدُّخُولِ فـي «العَوْلَمَةِ» من مَنْطِـقِ الصِّرَاعِ من دَاخِلها في سبيل تَعْديلِ موازين القُـوى المُتَحَكِّمَة بها، وتَحْسينِ فُرَصِ السَّيطرة على جُزْءٍ من آليّاتِها، والتَّحَكُّم في نُظُمِهَا وفَعّاليّاتِهَا)[٤١]. أمّا من مَنْظُورِ «صِراع الثقافـات» الذي يرى بعضهـم أنّ «العَوْلَمَةَ» تَسْعَى إلى تَأْجيجِ نـاره، فإنّنا نَتَّفِقُ مع برهان غليون حين يقول: (ليستْ «العَوْلَمَةُ» هي المُنْشِئَة لسَيْطَرَةِ ثقافةٍ على ثقافةٍ أُخْرى، ولكنّها مُنْشِئَـةٌ لنَمَطٍ جديدٍ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة». وليس للثّقافاتِ الأُخْرى أيُّ مُسْتَقْبَلٍ بالفِعْلِ إلاّ إذا أَدْرَكَ أصْحَابُهَا طبيعة هذا النَّمَطِ الجديدِ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة» وآليّاته، وبَلْوَرُوا الإسْتراتيجيّـاتِ المُناسِبَةَ التي تَسْمَحُ لثقافتِهم أنْ تَبْقَـى على مُسْتوى المُشاركة العَالَميّة الإبْداعيّـة، وألاّ تَتَحَـوَّلَ إلى مُجَرَّدِ ثقافاتِ هُويّـةٍ، أو مُعَبِّرَةً عن الاسْتمراريّـةِ والدَّيمُومَةِ التّاريخيّةِ لمَجْمُوعةٍ بشريّة. وهذا يَفْتَرِضُ التَّعَمُّقَ في فَهْمِ آليّاتِ هذه «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة»، وتَجْديدِ أساليبِ طَرْحِ مُشْكَلاتِ تَحَوُّلِ الثّقافات والمَهَامِّ المَطْرُوحَةِ على أصْحَابِهَا للنّجاحِ فـي هذا التَّحَوُّل، والارْتفَاعِ بثقافاتِهم إلـى مُسْتوى مُتطلَّباتِ العَصْر)[٤١]. الهَاجِسُ نفْسُهُ يَتَكَـرَّرُ لدى ثُلَّةٍ من المُثقَّفين العرب؛ فعلى سبيـل المِثال يَتَأَمَّلُ محمد محفوظ «الظَّاهِرَةَ العَوْلَمِيّةَ» ليَخْلُصَ إلى أنّ: (المَطْلوب ليس الخُرُوج من السِّياقِ الدّولي، وإنّما العملُ على اسْتِيعابِ آليّاتِ فِعْلِه، والتّكيُّفُ الإيجابيُّ مع مُتطلَّباته، عبْر إطْلاقِ مَشْرُوعٍ وطنيٍّ مُتكامِلٍ، يَسْتَهْـدِفُ خَلْقَ الكفاءاتِ والفُرَصِ والقُـدْرَاتِ بما يُعَظِّمُ ويُنَمِّي كُلَّ إمْكاناتِنا وفُرَصِ نُموّنا في هذا العَالَمِ المليء بالإراداتِ والقُوى)[٤٢].

وهكـذا نَقِفُ علـى «المَشْهَدِ العربـيِّ» لنَرْقُبَ كيف تَحُـومُ الأُطْروحـاتُ والهَواجِسُ حـول «شيءٍ ما» فيه «تَجْديد»، وفيه «اسْتِيعـاب»، وفيه «تَكيُّف»، وفيه «تفاعُل»؛ ولكن تَبْقَى «مَاهِيَّـةُ» هذا الشّـيء في حاجةٍ إلـى تَعْبيرٍ أقْوى وتَحْريـرٍ أوضح وتَأْصيـلٍ أمْتن. وهكذا تَجِـدُ «المُجْتمعـاتُ العربيّـةُ» نَفْسَهَا في المَوْقِعِ ذاتـه الذي كانتْ فيه فـي عَصْرِ «ما قبل

العَوْلَمَة» عندما كانتْ صيحاتُ «النَّهْضَة»، وصرخاتُ اللّحاق بركْبِ «التّقَدُّم»، تَتَرَى من كُلِّ «النّهْضَويّيـن» على مُخْتلفِ مشاربهم وانْتماءاتهـم. ذلك «المَشْرُوعُ النّهْضَويُّ» الذي حَلَمَ به «النَّهْضَويّون» في القَرْنَيْنِ التّاسع عشر والعشرين الميلاديّ، وهذا «المَشْرُوعُ العَوْلَمِيُّ» الـذي يَرْنُو إليه «المُتَعَولِمُون» فـي مَطْلَعِ «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ كِلاهُمَا فـي حاجةٍ إلى «وَسَطٍ» كثيـفٍ قَادِرٍ على اسْتِيعابِ «الحركة المُعَاصِرَة»، ومَزْجِهَا مع قِوَامِ المُجْتمع، وتَأْصيلِهَا في نسيجِ الحياة.

مـن أبْرز معالِـم المَأْزِقِ هو الشُّعُـورُ بوقُوعِ «الثّقافة» فيما وَصَفَـهُ تيري إيجلتون[٢٧] فـي حالةٍ تقعُ بين (مِطْرَقـةٍ كَوْنيَّةٍ مُخْتَلَّة، وبين سِنْدَانِ خُصُوصيّـاتٍ مُشَوَّهَة)، وبالرّغْم مـن أنّ إيجلتون يَتَحَـدَّثُ عن سِياقٍ مُخْتلفٍ تماماً عن واقِعِ «الثّقافة العربيّة» إلاّ أنّ الحالة المَوصُوفة تُشْبِهُ طبيعة المَأْزِقِ الذي تَتَرَدَّى فيه «الثّقافة العربيّة». وأمّا - في نهاية المطاف - فإنّـه يَنْبَغِي الاتّفَاقُ مع إيجلتون بـأنّ: («الثّقافة» كقِيمةٍ كَوْنيّةٍ، و«الثّقافة» كشَكْلٍ حياتيٍّ مَخْصُوصٍ ليستا مُتضادَّتان بالضّرورة)[٢٧]، إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نُؤكِّدَ هنا على أهميّةِ تَأْمين «صِمَامَاتِ أمانٍ» تَضْمَنُ عدم التَّصَادُم، وتُحَقِّقُ عناصِر التَّضَافُرِ والتَّوافُقِ والتّنَاغُم.

٢-٥-٣) «وَقودُ العَوْلَمَة» والبَحْثُ عن «ثقافةٍ حيويّة»:

فـي سِياقِ «العَوْلَمَةِ» و«وَقُودها» تَبْرُزُ - بشَكْلٍ صَارِخٍ - حَتْميّةُ تَأْسيسِ «ثقافةٍ حيويّةٍ» وتَأْصيلِها وتَطْويرِها لتتجاوَبَ مع طبيعةِ آليّاتِ «العَوْلَمَةِ» وخصائِصِها ووَقُودِها، وتُفْلِحَ في التَّحكُّـمِ بأدواتِها ومُعْطياتِهـا، وتتمكَّنَ من بِنَاءِ الجُسُورِ مع «الهُويّـةِ المحليّةِ»، و«الانْتِمَاءِ الدِّينـيّ»، و«الخُصُوصيّةِ الثّقافيّـةِ»، و«القِيَمِ المُجْتمعيّة»؛ فتكونُ قَـادِرَةً على التّفاعُل مع ثقافةِ «العَوْلَمَةِ الغَازِيَة»، ليس بالبُكاء والعويل، أو الانْعِزال والانْغِلاق، أو التّنْظير والتّمنّي، ولكن بالفِعْلِ الذي يَتْرُكُ بصماته على الأرْض - إنْتاجاً وتَطْويراً وتَنْميةً -، ولقد اسْتَشْرَفَ مالـك بن نبـيّ هذا الحال منـذ خمسينات القـرْن الماضي حين كتب يقـول: («الثّقافة» أَصْبَحَـتْ تتحدَّدُ أخْلاقيّاً وتاريخيّاً دَاخِل تَخْطيـطٍ عَالَميٍّ، لأنّ المنابِع التي سوف تَسْتَقِي منهـا أفْكارهـا ومشاعِرهـا، والقضايا التـي سوف تتبنَّاهـا، والاسْتِفْـزازات التي سوف

تَسْتَجِيبُ لها، والأعْمال التي سوف تقومُ بها، لا تَسْتطيعُ هذه كُلُّها أنْ تَتَجَمَّعَ في أرْض الوطن)[٢٨]. لقد بات وَاضِحاً أنّ الأَمْرَ الذي مَنَحَ «العَوْلَمَةَ» أبْعادها الكَاسِحَة هو «الفِكْر العِلْميّ» بما تَمَخَّضَ عنه من كُشُوفٍ عِلْميّةٍ، وتَطْبيقاتٍ تِقنيّةٍ، ومَنْظُومَاتٍ مَعْلُوماتيّةٍ، وشَبَكات اتِّصَالٍ؛ فـ«العَوْلَمَةُ» - عند التّحْليل والتّمْحيص - لا تَعْدُو أنْ تكون «التَّرْجَمَةَ الفِكْريّةَ والثّقافيّةَ والاقْتصاديّةَ والعَسْكريّةَ للسَّطْوَةِ العِلْميّة، وهي الفِعْلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْض كنتيجةٍ حَتْميّةٍ للهَيْمَنَةِ التّقنيّة المُعَاصِرَة»؛ وكما يقول برهان غليون: (تَبْدُو لي «العَوْلَمَةُ» حَاصِلَ دَمْجِ مُعْطيات «الثَّوْرَةِ العِلْميّة التّقنيّة» و«إسْتراتيجيّة إعادة الهَيْكَلَةِ الرّأسماليّة» معاً)[٤١].

قُلْنَا إنّ بُزُوغَ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة» لم يكنْ قبل عَقْدٍ أو عَقْدَيْن من الزَّمن، ولكنّه بدأ منذ حوالي ثلاثة قُرُونٍ، عندما أَصْبَحَتْ لُغَةُ «العلوم الطَّبيعيّة» هي «اللّغة العَالَميّة» للإنْتاج والتَّقدُّم وتَشْكيل المُجْتمعات الحديثة، وهي مَنْبَعُ القُدْرة والرِّيادة والنُّفُوذ؛ ولذا فمن الخطأ أنْ نَعْتَقِدَ أنّ «المَأْزِقَ» الذي وَقَعَتْ فيه الأُمّة العربيّة والإسلاميّة بدأ مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَة» في لِبَاسِهَا الحديث؛ فالحقيقةُ أنّ «المَأْزِقَ» قديمٌ منذ أنْ أَهْمَلَتْ الأمّةُ «الفِكْرَ العِلْميَّ» وتَطْبيقاته، ونَسِيَتْ الأَخْذَ بـ«أَسْبَابِ القُوَّة»، وانْجَرَفَتْ في التّيارات الكلاميّة، والخِلافات الفِكْريّة، وصِراعات السُّلْطَة، وديكتاتورية الفَرْد. ولأنّ سُنن الله لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّرُ؛ فإنّ «المَأْزِقَ» سيَسْتَمِرُّ سَواءً اسْتَمَرَّتْ ظَاهِرَةُ «العَوْلَمَة» واسْتَشْرَتْ، أو دخلنا في مَرْحلة «ما بَعْد العَوْلَمَة» أيّاً كانتْ احْتمالاتُها وأشْكالُها؛ فمَأْزِقُ «المُجْتمعات العربيّة» يَكْمُنُ في ضَعْفِهَا، وليس في ما يُقَدِّمُهُ الآخَرُون من أفْكارٍ وإسْتراتيجيّاتٍ وحُلُول.

عندما تُنْتِجُ المصانِعُ في الشَّرْق والغَرْب مُخْتلف مُتطلَّبات الحياة من غِذَاءٍ ودَواءٍ وكِسَاءٍ وسِلاحٍ ووسائِل، فإنّ الأثر النّاتِج عن تشابُكِ تقْنياتها، وتداخُلِ مُتطلَّباتها، وتَوحُّدِ مُواصِفاتها، لا يَتَوَقَّفُ عند الجَانِبِ المادّيّ، ولكنّه يَحْمِلُ معه - بالضّرورة - مضامين ثقافةٍ، وطُرُق تَفْكيرٍ، ومُمارَسات عملٍ، وقِسْ على ذلك كُلَّ نَمَطٍ من أنْماط «الحياة المُعاصِرة»؛ فكُلُّها تَخْضَعُ للتّفاعُلات العِلْميّة، والابْتِكارات المُتَجَدِّدَة؛ وكُلُّها تَحْمِلُ أنْساقاً ثقافيّةً، ورُؤىً فِكْريّةً، ومضامين حياتيّةً؛ وكُلُّها تُوجِزُ - في مُجْمَلِهَا - طبيعة «الثّقافة

الحيويّـة» المَنْشُودة؛ وهذا ما يُشِيرُ إليه برهان غليـون إذْ يقول: (وما دام من غير المُمْكِن للعـرب في حُـدُودِ تطوُّرهم العِلْميّ والتّقنيّ الرّاهِن التّأثير علـى الطّابع التّقنيّ للعَوْلَمَة، أَيْ الدُّخُـولُ فيها من زاوية المُشارَكـة الفعّالة في ثَوْرَةِ المَعْلُوماتيّـة والاتّصالات، فلا يُمْكِنهم الاسْتِفادة الفِعْليّة منْها إلاّ إذا نجحوا في توفير شُرُوطٍ تَسْمَحُ بتفتُّح إمْكاناتها لديهم، وبَلْورة إسْتراتيجيّةٍ تُتِيحُ لهم السَّيْطَرَةَ على بعْض عناصِرها أو على عناصِر أساسيّة فيها)[٤١].

إنّ الحقيقـة الحزينة تقول إنّ «القُـوَّةَ الكَامِنَةَ» وراء تفاعُلاتِ «الحيـاة المُعَاصِرَة» كانـتْ آخِـر اهْتِمامـات «العَالَم العربـيّ» الحَائِـر، وحتى أولئـك الذيـن وضعوها ضمْن أولويّاتهم الخَطَابيّة والشَّكْليّة فَشِلُوا في تَفْعيلها، واحْتِضَانِ قِيَمِهَا، والتّفاعُلِ مع شُرُوطِها، والاحْتِكَامِ إلى ضَوابِطِهَا. ولا شَكّ في أنّ «المَأْزِقَ» سيَسْتَمِرُّ طالما أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تَسْتَوْعِبْ بعد طبيعة «الوَقُـود» الذي يَدْفَعُ صاروخ «العَوْلَمَة»؛ ولأنّ «العَوْلَمَةَ» هي «الابن الشَّرْعـيّ للعلوم والتّقْنيـة»، فإنّه ليس لدى هذه المُجْتمعات ما تهابه مـن «العَوْلَمَة» سوى ضَعْفها واسْترخائها إزاء «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ امْتِداداتِها التّطْبيقيّة وعُنْفوانِها الفِكْـريّ وتشعُّباتِهـا الثّقافيّة، وكما يقول زيـن العابدين الرّكابي: (هنـاك حَافِزٌ إضافيٌّ يُلْهِـبُ الإرادة ويُحَفِّزُهَا علـى الاسْتِبْحَارِ فـي «الثّقافة العِلْميّة». هـذا الحَافِزُ هو «تَحَدِّي العَوْلَمَـة»؛ فإذا كانتْ «العَوْلَمَةُ» خطراً دَاهِماً فليس يُدْفَـعُ هذا الخطر إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياتـه، وإذا كانتْ هناك معارِف جديـدةٌ تُكْتَسَب، وعَلاقاتٌ جديدةٌ تُنْسَج، فلا سبيل لتَحْقيق ذلـك إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياته، وإذا كانتْ «العَوْلَمَة» «بَيْنَ بَيْن»، فإنّ التَّمْييزَ بين خَيْرِهَا وشَرِّهَا لا يكون إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومعاييره)[١٤].

٢ - ٦) «المُثقّفُ العربيّ» والدَّوْرُ المَفْقُود:

عند الحديث عن «الثّقافة العربيّة» يُصْبِحُ الاهْتِمام بمن يُمَارِسُهَا ويُطَوِّرُهَا ويُشَكِّلُهَا أَمْـراً حَتْميّـاً ممّا يُوجِبُ تَسْليط الضّوء علـى «المُثقّف العربيّ»، وهنا تَبْـرُزُ بوضُوحٍ حَالَتَا «النَّرْجَسِيّـة» و«العُزْلَـة» التـي يتميَّزُ بها هـذا «المُثقّف» ممّا أَدَّى، وفْـق رُؤية محمود عبد الفضيـل، إلـى: (عدم نُشُـوء مدارِس فِكْريّـةٍ حقيقيّةٍ، بَـلْ «حوانيت فِكْريّـةٍ» فلقد اخْتار

المُثقَّفون العرب، في مُعْظَمهم، أُسْلوب «العَزْفِ المُنْفَرِد» في عُزْلَةٍ عن حركة الجماهير في المُجْتمع، وفي عُزْلَةِ بعْضهم عن بعْض، وانْتَشَرَتْ بينهم أمْراضُ «الفَرْدِيّة» و«الشُّلليّة»، وحَفَلَتْ المنْطقة العربيّة بنموذج «المُثقّف الطّاووس» يَخْتَالُ عجباً بنفْسه الذي لا يرى إلاّ نفْسه في المِرآة، ولا يَرْجِعُ سوى إلى أعْماله، ويُهْدِرُ الإشارة إلى غيره من المُثقَّفين والمُبْدعين، وبالتّالي لم يَحْدُثْ نَوْعٌ من التَّرَاكُم المَعْرفيّ الخَلاّق في المَنْطقة العربيّة)[١٨].

في «أدبيّات الثّقافة» اهْتِمامٌ جَلِيٌّ بطَرْحِ تَصْنيفاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لـ«المُثقَّف العربيّ» منذ بُرُوز هذا المُصْطلح في «الفِكْر العربيّ»، ويُعَبِّرُ كُلُّ تَصْنيفٍ عن مَرْحلةٍ مُعَيَّنَةٍ من مراحِل التّطوُّر التّاريخيّ في «المُجْتمعات العربيّة»؛ فنجدُ[١٨] – على سبيل المِثال– أنّ هناك «المُثقّف الاجْتِراريّ»، و«مُثقّف التَّحَرُّر الوطنيّ»، و«مُثقّف النِّضَال القوميّ»، و«المُثقّف الليبراليّ»، و«المُثقّف التِّكْنوقراطيّ»، وفي حالاتٍ أُخْرى تَعْمَدُ «الأدبيَّات» إلى التّمْييز بين «مُثقّف السُّلْطَة» و«مُثقّف المُعَارَضَة»؛ ومن الوَاضِح أنّها جميعها تَكْتَسِبُ دَلالاتٍ سياسيّةً، وتَعْكِسُ تجارِب مُتَنَوِّعَةً في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُخْتلفةٍ، ولا يَخْلُو الأَمْرُ – في نهاية المطاف – من انْضِواءِ أيٍّ من هؤلاء المُثقَّفين تحت لِواء إحْدى «المدارِس الفِكْريّة» التي تَطَرَّقْنَا إليها في الفَصْل الأوّل من هذا الكِتاب.

وعلى الرّغْم من وُجُود جِذْرٍ ثقافيٍّ رَاسِخٍ في «الثّقافة العربيّة» يُكَرِّسُ «الحالة الانْفِصَاليّة» بين «المُثقّف» و«المُجْتمع» إلاّ أنّ «النّزْعَةَ الأكاديميّةَ المُفْرِطَةَ»[١٨]، وبالذّات لدى رِجال «العلوم الطّبيعيّة» ومُتخصّصي «التّقْنية»، قامتْ بدَوْرٍ فَاعِلٍ في عَزْلِ «الثّقافة العِلْميّة» عن «الجُمْهُور»، وأدَّتْ دَوْراً فَاعِلاً في إنْجَابِ ما وَصَفَهُ عبد الإله بلقزيز[١٨] بـ«المُثقّف المُنْفَصِل». أمّا ما اشْتَهَرَ باسْم «المُثقّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو (المُثقّفُ العَارِفُ بالحقيقة، ومُوقِظُ الوَعْي، وضميرُ المُواطِنين)؛ وهو النَّمُوذَجُ الذي نشأ في القَرْن الثّامن عشر الميلاديّ في أوروبا، فقد تآكل بفِعْل عناصِر عِدّةٍ ليس أهْونها بُروز أنْماطٍ مَعْرفيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ ذات طابعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعةٍ تراكُميّةٍ وأنْماطٍ مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبح لها التّأْثير الأكْبر على حياة البشر وتطوُّر المُجْتمعات.

وتماشياً مع سِياق هذا الكِتاب واهْتِمامه الحَصْرِيّ بـ«قضيّة التّنْميّة»، فإنّه لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مع عبد الإله بلقزيز في مَيْلِهِ إلى اخْتيار ما أسْمَاهُ «التّعْريف الوظيفيّ للمُثقّف» الذي (نَنْتَبِهُ فيه إلى ما يُكَوِّنُ عناصِر التّحْديد لدى «المُثقّف» من خلال «الشّكْل المادِّيّ» الذي تَتَجَلَّى فيه فَعّاليّته)[١٨]، ولا شَكّ أنّ هذا التّعْريف، عند السَّعي إلى إسْقَاطِهِ على «المُثقّف العربيّ»، سيُبْرِزُ قُصُوراً فَادِحاً في «التّكْوين الثّقافيّ» لهذا «المُثقّف»، وهو قُصُورٌ نَزْعُمُ في هذا الكِتاب أنّه يَقَعُ في قَلْبِ «إشْكَاليّة التّنْمية».

تَبْرُزُ المُشْكِلَةُ ذاتها إذا أخذنا بذلك التّعْريف الذي خَلَصَ إليه جلين سيبورج (Glenn Seaborg) بقَوله: (إنّ المُثقّف - إذاً - هو الإنْسان الذي يَمْتَلِكُ مَعْرفةً كافيةً تُلائِمُ بيئته)[٤٤]؛ وبما أنّ لـ«البيئة المُعاصِرَة» مُرْتكزاتٍ عِلْميّةً ومُنْطلقاتٍ تَنْمَويّةً ومُتطلّباتٍ تِقنيّةً، فإنّ هذا التّعْريف سيُخْرِجُ، من زُمْرَةِ المُثقّفين، الغَالِبيّةَ العُظْمَى من المَحْسُوبين على «الثّقافة» في العَالَم العربيّ، وبخاصّةٍ عندما يُذَكِّرُنَا محمود عبد الفضيل أنّ: (التّحَدِّي الكبير الذي يُواجِهُ العرب في القَرْن القَادِم هو كيف يُمْكِنُ لهم اقْتِحَامُ «مُجْتمع المَعْلومات» و«التِّقانة المُتَقَدِّمَة»، واجْتِيازُ «الحَاجِزِ الحَرِج» نحو هذا العَالَم الجديد من دون افْتِقادِهم الخُصُوصيّة الثقافيّة والهُويّة الحضاريّة)[١٨]. في هذا السِّياق يُؤكِّدُ أنيس صايغ[١٨] على ظَواهِر مُرْتَبِطَةٍ بـ«المُثقّف العربيّ»، ويَصِفُهَا بأنّها: (جديرةٌ بالانْتِبَاه والتّفحُّص ليَسْتَقِيمَ الحُكْمُ في ما يتعلّقُ بالنِّتاج الثّقافيّ العربيّ)، ومن بين هذه الظَّواهِر: (أنّ «الثّقافة» شَأْنٌ مُتَطَوِّرٌ لأنّه شَأْنٌ حَيٌّ، ومن هنا يُواجِهُ مُثَقَّفُنَا العربيّ اليوم، مهْما كانتْ أحْجَامُ هُمُومِه ومُسْتوياتُ عطائِه، تحدِّياتٍ لم يَأْلَفْهَا أسْلافه من أهْل العِلْم والمَعْرفة من عرب الأمْس. هناك تحدّي «النَّهْضة العِلْميّة والتّكْنولوجيّة» في العَالَم التي لا يجوز لبلادنا أنْ تَبْقَى بعيدةً عنها، بَلْ إنّها لا تَسْتطيع أنْ تتجاهلها، لأنّها إذا فعلتْ ذلك تجاهلها التّقدُّم في حُقُول المَعْرفة، وأبْعَدَهَا عن المُشَارَكَةِ في الفِعْلِ الحضاريِّ المُعَاصِرِ والمُقْبِل).

أمّا وَاقِعُ الحال، فيَشْهَدُ بأنّ خِطَابَ «المُثقّف العربيّ» بَقِيَ خِطَاباً مَهْوُوساً بذاته، مُغْرِقاً في نَرْجَسِيّته، مُسْتَنْسِخاً لمُعْطياته، مُجْتَرّاً أحْلامه؛ وأمّا الطَّامَةُ الأُخْرى فهي

إغْراقُ خِطَابِ «المُثقّف العربيّ» في «الجَدَلِ السّياسيّ» ليكون وفْق وَصْفِ شاكر مصطفى: (العطـاء الثّقافيّ كان سياسيّاً بالضّرورة أكْثر ممّا هـو ثقافيّ. صَبَغَتْ السّياسة الفِكْر كُلَّه بلَونِهَـا الكَالِح لأنّهـا أَصْبَحَتْ خُبْزَ النّاس على الرّغم منهم)[١٨]. وبقِـراءةٍ مُتَأنّيةٍ نجدُ أنّ شيئـاً ما لم يتغيّرْ في أنْماط «الحياة الثّقافيّـة» ومُمارَساتها واهْتِماماتها عبْر قُرُونٍ طويلةٍ مـن الزّمن، وكما يقول شاكر مصطفى: (فخِطَـابُ المُثقّفين في الرُّبْعِ القَرْنَ الأخير أخذ -كما كان من قَبْل - الطّابع الأدبيّ والفنّيّ، لا الطّابع الفَلْسفيّ أو العِلْميّ. وإذا كان التّوجُّهُ الأدبيّ يَسْتَقِي من تُراثٍ محلّيٍّ في الغَالِب، فقد تداخلتْ فيه وفي تَغْذيته منابِع غَرْبيّةٌ شَتّى. أمّا العطاء الثّقافيّ العِلْميّ فقد كان في مُعْظَمِهِ مُتَرْجَماً عن الإنْجليزيّة والفرنْسيّة)[١٨].

٢-٦-١) المَأْزِقُ الثقافي: بين «السِّياسة» و«العِلْم»:

إنّ «الخِطَـابَ الثقافـيّ»، الذي تَمَيَّزتْ به الحـركات النَّهْضَويّة فيمـا يُسَمَّى «عَصْر النّهْضـة» خلال القَرْنَين الماضِيَيْن، كان خِطَاباً سياسيّاً في المقام الأوّل، واهْتَمَّ - تحت ضُغُوط الظُّرُوف السّائِدَة - بقضايا التّحرُّر من الاسْتعمار، وتَأْسيس بُنىً سياسيّةٍ تَنَوَّعَتْ بيـن دَعاوى الوَحْدَةِ والاشْتراكيّـة، واتِّهاماتِ الرّجعيّة والدّكتاتوريّـة، واسْتِعادةِ فلسطين المَسْلُوبـة، لتضيـق رُقْعَـةُ المُطَالَبَـاتِ والشِّعَـارَاتِ والبُكَائِيّاتِ مـع «النَّكْبَـةِ الثّانية» في عـام ١٩٦٧م لتَقْتَصِرَ على «إزالة آثار العُدْوان»، ولتَسْتَجْدِي العَوْدَةَ إلى حُدُودِ ما قبل عام ١٩٦٧م، وما زال أُفُقُ التَّنَازُلاتِ مَفْتُوحاً!.

مـن المُهِمّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنـا أمام مُلاحَظةٍ قَيِّمةٍ يَطْرَحُهَا محمـد عابد الجابريّ عندما يقـول: (الدَّوْرُ المُحَـرِّكُ للحياة الثّقافيّة فـي التّاريخ العربيّ الإسْلامـيّ كان للسّياسة. لقد قامـتْ «السِّياسة» في السّاحة الثّقافيّة العربيّة بالـدَّوْرِ ذاته الذي قام به «العِلْم» في الثّقافة الأوروبيّـة)[١]، ويقودُنـا هذا التّحْليلُ إلى وَضْعِ إصْبعنا على السَّبَـبِ الذي أَدَّى إلى انْحِطَاطِ الأُمّـة العربيّـة وتَخَلُّفِهَا، وأَدّى - في الوَقْتِ نفْسـه - إلى تَقَدُّمِ أوروبـا وتَفَوُّقِهَا؛ ففي الحالة الأولـى كانـتْ «السِّياسَةُ» تُضْرِمُ أتُـونَ الفُرْقَةِ والصِّراعات، وتُؤَجِّجُ نـار الخِلافات ومطامِع السُّلْطَة؛ وأمّا في الحالة الثّانية فقد كان «العِلْمُ» في أوروبا يُحَقِّقُ الإنْجازات المادّيّة، ويُطَوِّرُ

الاقْتصاديّـات، ويَدْفـعُ «التّنْمية»، ويُكَرِّسُ «العَقْلانيّة»، ويَضْبِطُ الانْفعـالات. وهكذا راحتْ «الثّقافـة السِّياسيّة»[٣١] – في المُجْتمعات العربيّة – تتفاعل مـع المَلَكَاتِ الأدبيّة والمهاراتِ اللفْظيّة المُهَيْمِنَة على «الثّقافة العربيّة»، وبالتّالي تَدْخُلُ في دَوَّامَاتِ المُسَاجَلاتِ والمُزايدات، وتَجْييشِ المَشَاعِـرِ والانْفعالات، لتَصْطَـدِمَ بوَاقِع العَصْر وتحدّياتـه، دون أنْ تَمْتَلِكَ أدواتٍ فَاعِلةً للتّعامُلِ مع المُتَغيِّرَاتِ المُتسارِعة في أنْمَاطِ الحياة و«مُقْتضيات التّنْمية».

وهكـذا نَصْطَـدِمُ بعَدَدٍ من الأسْئلة مـن أبْرزها: (ما أَبْعَادُ ذلك الـدَّوْرِ الذي يَنْبَغِي أنْ يَتَبَنّـاهُ «المُثقّـفُ» ويَتَحَلَّى بخصائِصِهِ ليكون له الفَاعِليّة المَطْلوبة في الخُرُوجِ من نَفَقِ الإحْبَـاطِ والعَجْز؟. ما «القضيّـةُ الغَائِبة»، أو «الحَلْقَـةُ المَفْقُودَة»، القَـادِرَةُ على إحْدَاثِ «النَّقْلَـةِ النَّوْعيّـة» فـي عطاء «المُثقّـف العربـيّ» وتفاعُلاتـه وإبْداعاتـه؟). إنّ المُشْكلة الكَامِنَـة – في كُلِّ تلك الطُّرُوحات والتّفْسيـرات والتّعْريفات المُرْتَبِطَة بـ«المُثقّف العربي» وأحْوالـه – هي أنّهـا تَدُورُ في أفْلاكِ السّياسـة، أو الفِكْرِ المُجَـرَّد، أو الهُمُومِ المُجْتمعيّة الآنيّـة، فـي رُؤىً عَشْوائيّةٍ لا تَتَعَـرَّفُ على جَوْهَرِ التّحدّيات ولا تَسْتَجِيـبُ لمُشْكلاته. ولذا فـإنّ تَعْريفـاتٍ فَضْفَاضَةً مثل تَعْريف «المُثقّـف» بأنّه «مُنْتِجُ الوَعْـي»، كما يرى عبد الإله بلقزيـز[١٨]، لا يُمْكِـنُ لها أنْ تُقَدِّمَ أو تُؤَخِّرَ في حَلّ مُعْضِلَةِ «الثّقافة العربيّة»، وذلك لسببٍ جوهـريٍّ هو أنّ تلـك المسارات والتّعْريفات والمَواعِظ والإنْشائيّـات جميعها تُغْفِلُ طبيعة «الـدَّوْرِ التّنْمَـويِّ» للمُثقّـف، وتُهْمِلُ خصائِص «المَـدَارَاتِ التّنْمَويّة» التـي يَنْبَغِي لـ«ثقافة الأَلْفيّـة الثّالثـة» أنْ تَنْخَرِطَ فيهـا وتتعامل معها بجِدِّيَّةٍ واهْتمام. وهكـذا نجدُ أنّ الحاجة مَاسَّـةٌ فـي «المُجْتمعات العربيّـة» إلى ما يُسَمِّيه عبـد الله عبد الدّائـم «الثّقافة الجَادَّة» التي: (تُقَدِّمُ لأبناء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أَجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم، وأَمْرَاضِ مُجْتمعهم، ومَطَالِبِ مُسْتَقْبَلهم)[١٨].

٢-٦-٢) البَحْثُ عن مَشَاجِب:

تميـلُ جَمْهَـرَةٌ مـن المُثقّفين إلى إلقـاء مَسْؤوليّة مـا يُعانيه «المُثقّـف العربيّ» من يَأْسٍ وإحْبَاطٍ وعَجْزٍ علـى جِهاتٍ عِدَّةٍ؛ فالبَحْثُ عن «المَشَاجِب» تَقْليدٌ أصيلٌ في «الثّقافة

العربيّـة»؛ و«المَشَاجِـبُ» كثيرةٌ، وهي تتوالدُ مع الزَّمـن، وبكفاءَةٍ عاليةٍ، لأنّهـا تَنْبَثِقُ من الخيـال العربيّ الجَامِح والوِجْـدان الجَانِح؛ ومنْها - على سبيل المِثـال - «نِظَامُ السُّلْطَةِ البيروقراطيّـة» الـذي عزا إليـه برهان غليـون[١٨] رُوح الإحْبَـاطِ والضَّيـاعِ واليَأْسِ التي أَلَمَّـتْ بمُعْظَمِ المُثقَّفين. وأمّا القِرَاءَةُ المُتَأنِّيةُ لطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، وخصائِص التّفاعُلات الثقافيّة، ومُتطلَّبات «الحركة التّنْمَويّة»، فتُوَضِّحُ أنّ العَيْبَ «عَيْبٌ بُنْيويٌّ ثقافيٌّ» فـي المقام الأوَّل، وهـو عَيْبٌ لا يُمْكِنُ تَقْويمـه إلاّ بحُلُولٍ ثقافيّةٍ مُلائِمَـةٍ، ولقد وَضَعَ زكي نجيـب محمود إصْبعه على الجُـرْحِ النّازِفِ عندما قـال: (أَحْسَبُ أنّ الحقيقـة ستَصْرُخُ فـي وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُـهُ حتّى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخـذوا يَقْرؤون كِتاب الطّبيعة المَفْتُـوح، ويَقْرؤونـه على ضوء «المَنْهَـجِ العِلْميّ» المُؤدِّي حَتْماً إلـى نتائِج عمليّةٍ في حياة النّاسـ، بينمـا أَخَذْنَا نحن نَقْرَأُ صحائِـف الأقْدمين لنَحْفَظَهَا حِفْظـاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنها الهَوامِش، ثم نَشْرَحُ هذه الهَوامِش في هَوامِش، إلى آخر هذا الجُهْدِ الشّاقّ الذي يَبْدَأُ بالورق، ويَنْتَهي بالورق)[٢٠].

وهكذا يَتَّضِحُ دون لَبْسٍ أنّ «الثّقافة العربيّة» أَخْفَقَتْ في توليد «مَشْرُوعٍ نَهْضَويٍّ» شَامِلٍ - ذي نَكْهَةٍ مُعاصِرَةٍ - قَادِرٍ على اسْتِشْرَافِ المُسْتقبَل، وتَقْييمِ الحَاضِر، وتَنْقيحِ الماضي، ومُجارَاةِ التّفاعُلات العَالَميّة، والتّجاوبِ مع مُتطلَّبات العَصْر، واسْتِيعابِ مُتَغَيِّراته؛ وهكذا بَقِـيَ «المُثقّف العربيّ» أسير تَكْوينه الثّقافيّ؛ نَادِباً حَظَّه، ولائِماً غيره، وبَاكِياً - كالعادة - على الأطْلال. لقد أَدْرَكَ بعْض المُهْتَمِّين بـ«المُعْضِلَة الثّقافيّة» أبْرز مَلامِح «الخَلَلِ البُنْيويّ» فـي «الثّقافة العربيّة»، وهـو ضَعْفُ «التّكْوين المَعْرفيّ» لـ«المُثقَّـف العربيّ»، وهذا ما يُشِيرُ إليه عبد الله عبد الدّائم فيقول: (إنّ فَقْرَ المُحْتوى العِلْميّ والعَقْليّ والتّغْييريّ والتّجْديديّ لعطاء «المُثقّف العربيّ» في كثيرٍ من الأحْيان، وعَجْزَهُ غَالِباً عن الغَوْصِ في أعْماق حاجات المُجْتمع من أجل إدْراك مُسْتلزمات تَغْييره، وضَعْفِ الْتزامه أحياناً بما تُمْليه عليه ثقافته، أُمُورٌ تَجْعَلُ قُدْرته على مُخَاطَبَةِ المُجْتمع مَنْقُوصَةً ومُقَصِّرَةً عن مداها)[١٨].

إذا كانتْ «الثّقافة» مُحِيطاً تَسْبَحُ فيه مُكَوِّنات المُجْتمع وخصائِصه، وكانتْ الإشْكَالِيّة القَائِمـة «إشْكَالِيّةً تَنْمَويّةً» بامْتيازٍ، وكانتْ «التّنْميـة» حركةً مُجْتمعيّةً ديناميكيّةً يَنْبَغِي أنْ

تَتَحَـرَّكَ دَاخِل ذلك «المُحِيط الثّقافـيّ» وتتفاعلَ مع أَبْعادِه وأَغْـواره؛ وإذا كان «المُثقّفُ» هـو العُنْصُر الـذي يَحْمِلُ هَمَّ مُجْتمعـه، وصَاحِـب رأيٍ ورِسالةٍ وقضيّةٍ يَدْفَـعُ بـ«الحَرَاك الثّقافـيّ» طَامِحاً في إحْداث تَغْيِيرٍ نحو الأفْضل، فإنّه من البدهي أنْ تقود تلك المُعْطيات إلـى عمليّاتٍ تَدْفَعُ بـ«المُثقّف» بعيداً عن التّنْظيرِ الغَائِم والشّعَارَاتِ السّياسيّةِ والانْفعالاتِ المُلْتَهِبة، وتُحَرِّرُهُ من التَّقَوْقُعِ تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرى من الانْكِبَابِ على جَـدَلٍ عقيمٍ حول «حَدَائِقٍ كلاميّةٍ» لا تَفْقَهُ أَبْجديّـات «المُعَاصَرَة»، وتُفْلِحُ فقط في أنْ تَزُجَّ بـ«المُثقّف» في صِراعٍ مُحْتَدِمٍ تارةً مع السُّلْطَة، وتارةً مع معايير المُجْتمع.

وأمّا «قضايا التّنْمية»، بشُمُوليّتِهَا وتداخُلاتِها وتَحَدّياتِها ووَاقِعيّتِها وصرامتِها، فإنّها شـيءٌ آخَرُ تماماً، وهي بعيـدةٌ كُلّ البُعْدِ عن تلك الانْفعالات والتّخيّلات والجَدَلِ والأمانيّ؛ وهي لا تَنْتَظِرُ الوَصْفَاتِ السِّحْريّةِ والتّنْظيراتِ الوَهْميّة، ولا تَعْمَلُ من وَاقِع الحُلُول السَّهْلَة والتّصـوُّرات المُرْتَجَلَة، ولكنّها - بطبيعتها الحيويّة - «قضيّةٌ تراكُميّةٌ» حيث يَرْتَفِعُ البِنَاءُ لَبِنَـةً لَبِنَـة، ويَعْضُدُ بعْضُه بعْضاً، فـلا يُلْغِي العمل ما قبله من إنْجـازاتٍ، ولا يَنْسِفُ جُهْدُ المُتَأخِّريـن عطـاءات المُتَقَدِّمين. تلك «الطَّبيعـة التَّراكُميّة» تُؤدِّي - عبْـر الفَرْزِ الدّائِمِ والتّمْحيصِ النّزيه - إلى «عمليّةٍ عُضْويّةٍ توليديّةٍ»، حيث إنّها - ابْتِداءً - تَنْغَرِسُ في تُرْبَةِ بِيئتِهـا لتَنْمُو في تَنَاغُمٍ مع مُقَوِّمَاتِ البِيئة ونسيـجِ المُجْتمع، ثم هي لا تَفْتَأُ تتوالدُ وتتكاثرُ عبْـر التّفاعُلات الطّبيعيّة لعمليّةٍ تَنْمَويّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُورِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ لتُؤتِي أُكُلَهَا في سَخَاءٍ ونَقَاء.

مـن ذلـك المُنْطلـق، لم تكـنْ «التّنْمية الحقيقيّـة» - يوماً مـا - جُهْدَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، ولـم تَرْتَبِـطْ - ساعةً ما - بأَحْلام نُخْبَـةٍ دون غيرها، ولكنّها كانتْ دومـاً إرادةً جماعيّةً، وجُهُـوداً مُجْتمعيّةً، ورُؤىً مُشْتَرَكَـةً، وتلاقُحاتٍ مُتتابِعةً، وشَغَفـاً بالتّفاصيل، وتَدْقيقاً في الآليّـات؛ وهذه هي تمامـاً مُقَوِّمَاتُ «المَنْهَجِ العِلْميّ التَّجريبيّ» الـذي أَفْلَحَ - ابْتِداءً - في تَطْويـرِ علومِه ومناهِجِه وأدواتِه ليُحْدِثَ الثَّوْرَةَ الأَضْخَمَ فـي حياة البشر، ثم اسْتطاع أنْ يَنْتَقِـلَ، بفِكْرِه وثقافتِه وأدواتِه ومُنْجزاتِه، إلى كُلِّ خليّةٍ من خلايا الحياة في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» ليَدْفَعَ بها نحو الحيويّة والفاعِليّة والإنْجاز.

أقـول: الحاجـةُ مُلِحَّةٌ إلـى بَلْـوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّـف» يَنْتَقِلُ به مـن كُلِّ تلك الاحْتِقَانَـاتِ اللّفظيّة، التـي تُمَيِّزُ «المُثقَّف العربيّ»، إلى فِعْلٍ يسيـرُ على الأرْض، ويُوَظِّفُ المَـوارِد، ويَصْنَـعُ الآليّات؛ وكُلُّ هـذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّـقَ بمَعْزِلٍ عن فَهْـمٍ عميقٍ لطبيعة «الحركـة التَّنْمَويّة»، ومُقْتضياتها المُعَاصِرَة، وأدواتها المُتَجَدِّدَة. ومن هنا يَنْبَغِي أنْ يَبْرُزَ تَصْنيـفٌ جديدٌ لـ«المُثقّف» وهو «المُثقّف التّنْمَويّ»؛ هذا «المُثقّفُ» القَادِرُ على الاضْطِلاعِ بدَوْرٍ مَلْمُوسٍ في التّفاعُلات العَالَميّة، والتّعامُلِ مع مُعْطياتِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، واسْتِيعابِ مُتطلَّباتِ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها ووسائلِها.

٢-٧) توجيهُ الثّقافة:

مـن مُنْطلـق ضرورة بُـروز «المُثقّف التّنْمَويّ» فـي تفاعُلات «المُجْتمعـات النّامية» ليكون له دَوْرٌ فَاعِلٌ في إطار تلك الرُّؤية التي طَرَحَهَا تيري إيجلتون التي تُقَرِّرُ أنّ: (المُهِمّ فـي أَمْرِ «الثّقافة» هـو فِعْلُهَا التَّغْييريّ علـى مُسْتويات المُجْتمع الأُخْـرى)[٢٧]، فإنّنا نجدُ أنّـه من اللازم إبْراز مَفْهُـوم «توجيه الثّقافة»[٢] الذي طَرَحَهُ مالك بن نبيّ حيث يرى أنّ: (حَـلّ مُشْكلة الإنْسان يتكامـلُ في ثلاثة عناصِر أساسيّة هي: «توجيـهُ الثّقافة»، و«توجيهُ العمـل»، و«توجيهُ رَأْسِ المـال»)[٢]. وعندما نَتَأَمَّلُ تلك العناصِـر الثّلاثة نجد أنّ أبْرزها وأشدَّهـا تَأْثيراً هـو «توجيهُ الثّقافة» حيث تَرْسُـمُ «الثّقافة» مسار «العمـل» في المُجْتمع، وتصوغُ «أَخْلاقيّات العمل» و«ثقافـة الإنْتاج»، كما تُحَدِّدُ «الثّقافة» - بطبيعتِها وتفاعُلاتِها - مَنْحَـى الاسْتِثْمَارَات، وحركـة «رَأْسِ المال»، والحَوافِز الاجْتماعيّـة والماديّة والمَعْنويّة بحيـث يَتَّفِقُ «توجيه رَأْسِ المال» مع معاييـر «الثّقافة» وخصائِصها، فكما يقول مالك بن نبيّ: (القضيّةُ ليستْ في تَكْديسِ الثَّرْوَة، ولكن في تَحْريكِ المال وتَنْشيطِه، بتوجيه أمْوالِ الأُمّة البسيطة، وذلك بتَحْويلِ مَعْناها الاجْتماعيّ من أمْوالٍ كَاسِدَةٍ إلى رَأْسِ مالٍ مُتَحَرِّكٍ يُنَشِّطُ الفِكْر والعمل والحياة في البلاد)[٢].

مـن المُهِمّ - إذاً - أنْ نَفْحَصَ مُصْطلح «توجيه الثّقافـة»، ونَمْنَحَهُ أولويّةً بَارِزةً في «التَّخْطيـط النَّهْضَويّ» و«السِّياسات التّنْمَويّة»، وأنْ يَتِـمَّ تَطْويعُه وفْقاً للمُعْطيات الحديثة

والمُسْتَجِدَّات المَعْرفيّة؛ ففِكْرَةُ «التَّوجيه» لدى مالك بن نبيّ هي: (قُوّةٌ في الأساس، وتَوافُقٌ في السَّيْر، ووَحْدَةٌ في الهدف، فكَمْ من طاقاتٍ وقُوىً لم تُسْتَخْدَمْ لأنّنا لا نَعْرِفُ كيف نُكَتِّلُهَا. وكَمْ من طاقاتٍ وقُوىً ضاعتْ فلم تُحَقِّقْ هدفها حين زَحَمَتْهَا قُوىً أُخْرى صَادِرَةً عن نفْس المَصْدر، مُتَّجِهَةً إلى نفْس الهدف. فـ«التَّوجيه» هو تَجَنُّبُ هذا الإسْرَافِ في الجُهْدِ والوَقْت. فهناك ملايين السَّواعد العَامِلة، والعُقُول المُفَكِّرَة في البلاد الإسْلاميّة، صَالِحَةً لأنْ تُسْتَخْدَمَ في كُلِّ وَقْتٍ، والمُهِمّ هو أنْ نُدِيرَ هذا الجِهاز الهَائِل، المُكَوَّن من ملايين السَّواعِد والعُقُول، في أحْسن ظُرُوفه الزّمنيّة والإنْتاجيّة المُناسِبة لكُلِّ عُضْوٍ من أعْضائه)[٢].

وانْطلاقاً من تلك الرُّؤية، وفي ضوء «الحالة النّهْضَويّة» البَائِسَةِ في العَالَم العربيّ، يرى مالك بن نبيّ: (إنّه ليجب بادئ الأمْر تَصْفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخُلُقيّ والاجْتماعيّ، ممّا فيه من عَوامِل قَتَّالَةٍ، ورِمَمٍ لا فَائِدَة منها، حتى يَصْفُوَ الجَوّ للعَوامِل الحَيّة والدَّاعِية إلى الحياة. إنّ هذه التَّصْفية لا تَتَأَتَّى إلاّ بفِكْرٍ جديدٍ يُحَطِّمُ ذلك الوَضْعَ المَوروث عن فتْرة تَدَهْورٍ مُجْتمعٍ أَصْبَحَ يَبْحَثُ عن وَضْعٍ جديدٍ، هو «وَضْعُ النَّهْضة»)[٢].
ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (مفْتاح المُشْكلة يَكْمُنُ في وَضْعِ برنامجٍ لـ«توجيه الثّقافة» توجيهاً يَتَّفِقُ وسُمُوّ الغاية التي نَنْشُدُهَا)[٢٨]؛ وهذا - بطبيعة الحال - يَقْتَضِي إعادة النَّظَرِ في تَرْكيب «عناصر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّماتِها، وغَرْبَلَةِ أَطْيافِها، وتَمْحيصِ أُسُسِها، وتَحْديدِ أَهْدافِها، لإضْفَاءِ الحيويّةِ والنّشاطِ وتَحْقيقِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» عبْر القُدْرَةِ على مُواجَهَةِ المُشْكلات، واسْتِيعابِ المُسْتَجِدَّات، والانْسِجامِ مع مُتطلَّبات المَرْحلة، وهو الأَمْرُ الذي يُحَدِّدُهُ مالك بن نبيّ حَصْراً بطريقَتَيْن: (الأولى: سَلْبيّةٌ تَفْصِلُنَا عن رَواسِبِ الماضي، والثّانية: إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَيَاتِ المُسْتَقْبَل)[٢].

وهكذا تَبْرُزُ مُهِمّةُ «توجيه الثّقافة» كقضيّةٍ ذات أولويّةٍ رئيسةٍ في «المُجْتمعات العربيّة» فكما يقولُ مالك بن نبيّ: (ليس يَكْفِي مُطْلَقاً أنْ نُنْتِجَ الأفْكار، بَلْ يجب أنْ نُوَجِّهَهَا طِبْقاً لمُهِمّتِهَا الاجْتماعيّةِ المُحَدَّدَةِ التي نُرِيدُ تَحْقيقها)[٢٨]؛ وهذا يَعْنِي توفير تُرْبَةٍ خِصْبَةٍ تُسَانِدُ نُموّ الأفْكَارِ والمُمَارَسَاتِ والقِيَم القَادِرَة على توظيفِ الاسْتِعْدادات الفِطْريّة، وإطْلاقِ الطّاقات الكَامِنَة، ومُعالَجَةِ المُشْكلات، والنُّهُوضِ بـ«الحركة التّنْمَويّة»،

والتَّنَاغُمِ مع «مُقْتَضَيَاتِ العَصْر» ومُسْتَجِدَّاته؛ وبهذا يَتَحَقَّقُ «التَّوافُقُ المَنْطقيُّ» بين الوسيلة والغاية، فكما يقولُ قسطنطين زريق: (في سبيل ثقافةٍ عربيّةٍ أَفْضل لا بُدَّ أنْ نَرْسُمَ الخُطُوط الكُبْرى للمُجْتمع العربيّ الأَفْضل الذي نُريدُه) [١٨].

٢-٧-١) «ثقافة التّغْيير» و«تَغْيير الثّقافة»:

كنتُ قد عَلَّقْتُ[٤٥] على المؤتمر الثّالث لـ«مُؤسَّسة الفِكْر العربيّ» الذي انْعقد في مدينة «مراكش» - في عام ٢٠٠٤م - تحت عنوان «العرب بين ثقافة التَّغْيير وتَغْيير الثّقافة»، وتَسَاءَلْتُ ساعتها: (هل نَقَعُ مَرّةً أُخْرى في شِبَاكِ الثُّنَائِيّاتِ المُبْهَمَةِ التي هَيْمَنَتْ على ثقافتنا ورُدود أفْعالنا؟، وهل يُمْكِنُ لـ«ثقافةٍ» أنْ تعيش دون تَغْيير؟، وهل يُمْكِنُ أنْ يكون «التَّغْيير» نِتَاجاً محليّاً بَحْتاً بمَنْأىً عن تَأْثيرِ الآخَرين، وهَيْمَنَةِ تيّاراتِ «العَوْلَمَة»، وتفاعُلاتِ «الزّمان» و«المكان»؟). بما أنّ «الثّقافة» كائِنٌ حَيٌّ يَنْمُو ويَضْمُر، ويَشْقَى ويَسْعَد، ويَقْوَى ويَضْعُف، وفْق أحْوالِ أهْلِهِ ومُمَارَسَاتِهِم وقِيَمِهِم ونُفُوذِهِم، فإنّ «التّغْيير» أَمْرٌ حَتْميٌّ لا مناص عنه، وهو لن يكون - بالضّرورة - نحو الأَصْلح بخاصّةٍ إذا ما خلا من إرادةٍ وَاضِحَةِ المَلامِح، وإسْتراتيجيّةٍ ثَابِتَةِ القِوام، تُوَجِّهان ذلك «التَّغْيير»، وتتفاعلان مع عناصره، وتُحَدِّدان أهْدافه. في ضوء ذلك لن يكون السُّؤالُ المُهِمُّ - إذاً - هو: (هل نَجَمَ «التّغْيرُ» عن «ثقافة التَّغْيير» أو عن «تَغْيير الثّقافة»؟)، ولكن السُّؤالَ الحيويَّ هو: (هل جاء «التّغْيرُ» عَفْويّاً وعَشْوائيّاً، أمْ نَتَجَ عن قَصْدٍ وتَوجُّهٍ ورُؤية؟)، والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ تقودُنا حَتْماً إلى مُصْطلح «توجيه الثّقافة».

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّه إذا حدث «التّغْيير» بطريقةٍ عَشْوائيّةٍ، فإنّه سيَحْمِلُ حَتْماً سَلْبيّاتٍ مَحْليّةٍ، وقُشُوراً مُسْتَوْرَدَةٍ، وهَيْمَنَةَ «الغَالِبِ» التِّلْقائيّة، غير آبهٍ برِضَاءِ هذا أو انْزِعَاجِ ذاك؛ فسُنَنُ الحياة وقوانينُ الكَوْن لا تَتَغَيَّر لرِضَاء إنْسان أو غضبه مهْما بلغ من الورع والتّقوى. لقد أَجْمَعَ المؤتمرون في «مراكش» على رَفْضِ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» وفَرْضِهَا من قبل قُوىً خَارِجيّة، ولكن فات على المؤتمرين حقيقة أنّ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» تَحْدُثُ دون اسْتِئْذانٍ من أحدٍ، وهي تَحْدُثُ لأكْثر من سببٍ؛ فليس - بالضّرورة - أنْ

يَتَحَقّقَ ذلك نتيجةً لإمْلاءاتٍ خَارِجيّةٍ وتدخُّلاتٍ عَسْكريّةٍ، ولكن إذا بَلَغَتْ أيُّ ثقافةٍ مَبْلَغاً من الهُزَالِ والشَّيخُوخة، فإنّها تُصْبِحُ جَاهِزَةً للتّآكُلِ الدَّاخِليّ، والصَّدَأِ الفِكْريّ، والهزيمةِ الحضاريّـة؛ فيَنْخُرُ فيها السُّوس، وتُعانِي من هَشَاشَـةِ العِظَام، وتؤولُ - بالضّرورة - إلى حالـةٍ مَرَضِيّـةٍ مُزْمِنَة. نَسْتطيـعُ أنْ نقول - أيضاً - إنّـه حتّى لو افْتَرَضْنَا جَـدَلاً إمْكانيّة بَلْـوَرَةِ «ثقافة التّغْيير» دَاخِليّاً دون التّأثُّر بالخَارِج، فإنّـه يَلْزَمُ أنْ تكون «الثّقافة»، العَازِمَةُ علـى إجْراء «التّغْيير»، مُمْتَلِكَةً لـلأدواتِ والمُقَوِّمَاتِ الكفيلةِ بتَحْقيـقِ «التّغْيير» المَنْشُود، فكما يقول مالك بن نبيّ: (إذا ما مضينا لمُواجَهَةِ «مُشْكلة الثّقافة»، وجدنا أنفسنا نُواجِهُ ضِمْناً مُشْكلة أُسْلوب الحياة ومُشْكلة السُّلُوك الذي يَنْسَجِمُ معها)[٢٨].

من المُهِمّ - إذاً - أنْ نَتَلَمَّسَ الطُّرُق والوسائِل المُناسِبة نحو «تَأْهيل المُثقَّف تَنْمَويّاً» ليكـون صَاحِبَ «مَشْـرُوعٍ تَنْمَويٍّ» ورُؤيّةٍ عمليّةٍ قَادِراً على الإسْهَـامِ في دَفْعِ حركة مُجْتمعه وتَغْييـر ثقافته في اتِّجاه «سَهْمِ الزّمـن»، ومُؤثِّراً في الأحْداث بإيجابيّـة وكفاءَةٍ، ولتَنْتَقِلَ تلك الـرُّؤى التّنْمَويّةُ والاهْتِمَامَاتُ الحيويّةُ عبْر أمْـوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُلِ إلى «المُواطِن» أيّـاً كان مَوْقِعُـهُ ودَوْرُه. ولأنّ الهدف من مُهِمّـةِ «توجيه الثّقافة» هو تَحْقيـقُ أعْلى «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّـةٍ» لهـا، فإنّ مـن المُهِمّ إنْ تكـون «نُقْطَةُ الانْطِـلاق» نحو «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ» حيويّةٍ هي الاعْتِـراف بأنّ «الثّقافة العربيّة» تُعَانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومتها السُّلُوكيّة والقِيميّة والمَعْرفيّة، وأنّ عليها أنْ تَتَعَرَّفَ على أبْرز معالِم «الحياة المُعَاصِرَة»، وأنْ تَتَفَهَّمَ طبيعة أنْمَاطِ «المَعْرِفَةِ» الأكْبر تَأْثيراً في عَالَم اليوم وحيوات البشر؛ وهذه القضيّة - في الوَاقِع - هي الطّريقةُ الثّانيةُ التي وَصَفَهَا مالك بن نبيّ بأنّها: (إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَيَاتِ المُسْتَقْبَـل)[٢]، ويُحَدِّدُ ابن نبيّ تلـك «الطَّريقة الإيجابيّة» بأنّها «المَنْهَجُ التَّجْريبيُّ» الذي هو: (في الوَاقِع السَّبَبُ المُبَاشِرُ لتقدُّمِ المَدَنيّة الحديثة وتقدُّمِها المادّيّ)[٢].

وهكذا نجـدُ أنّ مَنْطِقَ الأحْداثِ العَالَميّة وفَلْسَفَةَ التّطـوّراتِ البشريّة يضعانا وَجْهاً لوَجْـه أمـام العَصَبِ الأساسِ لـ«الحيـاة المُعَاصِرَة»، ألا وهو «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» التـي تَمَكَّنَـتْ - في فتْرةٍ وجيزةٍ من تاريخ البشريّة الطويل - مـن أنْ تُغَيِّرَ أنْمَاطَ الحياة، وتُبَـدِّلَ وسائِـل الإنْتاج، وتَعْصِـفَ بالـرُّؤى الاجْتماعيّة، وتَقْلِـبَ المفاهيـم الاقْتصاديّة،

وتُزَعْـزِعَ المُعالَجات الفِكْريّة. إنّ المُجْتمع المُعَاصِـر المَعْرُوف بـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» أَصْبَحَ مُرْتَبِطـاً - بشَكْلٍ غيـر قَابِلٍ للانْفِصَـام - بالاكْتشافات العِلْميّة والقفـزات التّقنيّة؛ ولذا فإنّـه من الضّروري أنْ يكون لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة» دَوْرٌ حَاسِمٌ في تَشْكيلِ «المُنَاخِ الفِكْـريّ» عبْر توطيـن عمليّةٍ فَاعِلَـةٍ لـ«تَجَانُسٍ ثقافيٍّ» بينها وبيـن التّفاعُلات المُجْتمعيّة المُخْتلفـة، ممّـا يَسْبِرُ الأَبْعَـادَ المُهِمّـةَ للسُّؤال الاسْتِنْـكاريّ الذي طَرَحَـهُ روبرت هيزن (Robert Hazen): (كيـف يُمْكِـنُ لأيِّ إنْسانٍ أنْ يَتَطَلَّعَ إلى اسْتِحْسَـانِ الخُيُوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ للحياة الفِكْريّة في زمنه دون أنْ يَفْهَمَ العِلْمَ الذي يُصَاحِبُهَا؟)[٤٦].

بإيجازٍ؛ لقد احْتَلَّتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة - التّقنيّة» مَوْقِعَ القيادة في إسْتراتيجيّات الدُّول وتفاعُـلات المُجْتمعـات، وأَصْبَحَتْ تُحَـدِّدُ مدى التّقـدُّم والقُدْرة على تَحْقيـق مُتطلَّبات الازْدهـار والاسْتقـلال والقُـوّة؛ ولكن الأَمْـرَ يَتَطَلَّبُ رُؤيـةً أعْمق، وتَحْليـلاً أشْمل، ونحن نَسْتَقْصِـي مَوْقِـعَ «الثّقافة» فـي هذا الخِضَمّ المُتَلاطِـم من تلاقُحـاتِ «المَعْرِفَة» و«ثَوْرَة المَعْلومـات» وسِياقـات الاعْتماد المُتزايد - في مُخْتلف مناحـي الحياة - على مُنْطَلَقَاتِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» والحُلُولِ العمليّةِ والمُنْتَجَاتِ التِّقنيّة.

٢-٨) إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن:

مـن الطّبيعيّ أنْ تكون لـ«الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» تفاعُـلاتٌ جَدَلِيّةٌ - تَبَادُلِيّةٌ مع المُجْتمعـات التي تَنْتَظِـمُ بدَاخِلِهَا؛ فهي نشاطٌ بشـريٌّ يُؤثِّرُ، ويَتَأَثَّـرُ، بـ«الحالة الثّقافيّة» السّائِدَة في المُجْتمع، و«التَّجْربة الأوروبيّة» خير بُرْهَانٍ على ذلك؛ فـ«الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي نَبَتَتْ في القَرْن السّابع عشر الميلاديّ في أحْضَانِ «المُجْتمع الأوروبيّ» لم تُحَقِّقْ نجاحاتها وإنْجازاتهـا بسهولةٍ؛ وذلك لأنّها اصْطَدَمَتْ بـ«المَنْظُومَـةِ الثقافيّة» السّائِدَة، حيث كانتْ هنـاك مَواقِـفُ عَدَائيّةٌ، وأُخْرى حَـذِرَةٌ، وثالثةٌ ترى فيها شَـرّاً لا بُدَّ منه، ورابعـةٌ تَحْتَقِرُ العمـل اليدويّ المِهْنِيّ، وكان قَدْرٌ كبيرٌ من جُهُود العُلماء والباحِثين والمُفكّرين يَصُبُّ في محاولاتٍ جَادّةٍ لتكييف «الثّقافة السّائِدَة» مع مُقْتضيات «الفِكْر الجديد» وضَوابِطه.

إنّ مـا تَعَرَّضَـتْ له «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّـة» من خُصُوماتٍ وعَقَبَـاتٍ في تاريخ أوروبـا أَمْرٌ لافِتٌ للانْتِباه؛ فقد كان من المُتَوقَّع أنْ يكون التّكيُّفُ معها أكْثر يُسْراً ومُرُونةً، فهـي نِتَـاجُ تلك المُجْتمعـات وتَرَعْرَعَتْ ببُـطْءٍ في ساحاتهـا المَدَنيّة ومعاقِلهـا العِلْميّة، وكان التّـدَرُّجُ في مُعْطياتهـا هو السِّمَة الغَالِبة، حيث لم تَتَعَرَّضْ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» لما تَعَرَّضَتْ له «المُجْتمعات العربيّة» من هَجْمَةٍ شَرِسَةٍ على شَكْلِ مَوْجَاتٍ عَارِمَةٍ ومُتتاليةٍ من العلوم والابْتكارات، ولم تُحَاصِرْهَـا أحْدث التّقْنيات والصّناعات على شَكْل طُوفانٍ هَائِجٍ تَخْدِمُـهُ مُخْتلـف وسائِل الإعْلام والاتّصالات بفَاعِليّةٍ تَزْدادُ نُمـوّاً وامْتِداداً يوماً بعد يوم، ومن المُهِمّ أنْ نُؤكِّدَ هنا أهميّة هذه الحقيقة، فهي جديرةٌ بالتّأمُّل والتّدْقيق ونحن نَتَحَرَّى القضايا والمفاهيم العامّة المُرْتَبِطَة بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» ومِحْوَريّة «الثّقافة العِلْميّة».

لقـد كان للظُّرُوفِ السّياسيّة والدِّينيّة والاجْتماعيّـة دَوْرٌ مَلْمُوسٌ في إعاقة «الحركة العِلْميّـة» فـي أوروبا، إلاّ أنّـه لا يُمْكِنُ إهْمَالُ الـدَّوْرِ النَّاجِمِ عن طبيعـة «الفِكْر الجديد»؛ فـ«الفِعْلُ التّراكُمـيُّ»، و«المُكَوِّنَاتُ التَّجْريبيّةُ والرِّياضيّةُ» لـ«الثَّـوْرَةِ العِلْميّة»، أَدَّتْ بها إلى أنْ تَشُـقّ طريقـاً خاصّاً ومُخْتلفاً يَبْتَعِـدُ – تَدْريجيّاً – عـن «الثّقافة التّقْليديّـة» السّائِدَة، وتَسْتَعْصِـي مُتَابَعَتُهَـا وفَهْمُهَـا علـى «النُّخَـبِ الفِكْريّة» فـي مجـالات «الآداب» و«العلوم الإنْسانيّـة»، ناهيك عن عامَّةِ النّاس. لقد كانتْ المُصْطلحات الدّقيقة والرُّمُوز الرِّياضيّة والنَّظريّات المُنْضَبِطَة والشُّرُوط التَّجْريبيّة، إضافةً إلى التّوسُّعِ الهَائِلِ والتَّرَاكُم المُتسارِع فـي مُعْطيات «الثَّـوْرَة العِلْميّة»، تُضيفُ أعْبَـاءً مُتزايدةً على عمليّة التّواصُـلِ مع «النُّخَبِ الفِكْريّة» و«الجُمْهُورِ» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

بإيجـازٍ؛ أَحْدَثَتْ «الثّوْرَةُ العِلْميّة» – فـي العَالَم الغَرْبيّ – شَرْخاً في الانْسِجَامِ الفِكْريّ في «الثّقافة التّقْليديّة» المُسْتَنِدَةِ – أساساً – إلى الآداب والفَلْسفة والدِّراسات الإنْسانيّة، ولقد أَدْرَكَ بعض عُلماء الطَّبيعة الرُّوّاد – منذ البدايات – حقيقةً مُهِمّةً، وهي أنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَفْصِلُ فقـط بيـن أرْبابِها من «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَـة»، وبين تلك «المُجْتمعـات المُتَخَلِّفَة» عن الرّكْبِ والقَابِعَةِ علـى هَامِشِ الأحْداث، ولكنّها أيضاً – بطبيعتِها الجادّة ومَنْهَجِهَا الصّارِم وتَرَاكُمَاتِهَا المُتَلاحِقَـةِ – تُفْرِزُ فَواصِلَ دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد تَتَجَلَّى في فَجْوَةٍ يُعَانِي منْها «الجُمْهُور» الذي

يَجْنِي ثِمَارَ المُعْطيات التِّقنيّة، ويَتَمَتَّعُ بإنْجازاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ أنّه لا يتجانسُ - في التَّعامُلِ المَعْرِفيّ والتّعاطُفِ النّفسيّ والتَّناغُمِ الثّقافيّ - مع تلك الحركة الرّائِدَة.

لقد اسْتَشْعَرَ رُوَّادُ «الحركة العِلْميّة» في الغَرْب خطر هذا «الانْفِصَامِ الثّقافيّ»؛ فاهْتَمّ عَدَدٌ كبيرٌ منْهم بالتّفاعُلِ مع النُّخَبِ الفِكْريّةِ والقياداتِ السّياسيّة، ومع «الجُمْهُورِ» بشَكْلٍ عامٍّ، في مُحاولاتٍ دَائِبَةٍ لتَبْسيطِ المفاهيم والأفْكار، وتوضيحِ المُعْطيات، وإزالةِ اللّبْس، وإبْرازِ المضامين والمعاني والدّلالات والآثار المُرْتَبِطَة بالجُهُود العِلْميّة والنّتائِج التِّقنيّة. ومن أبْرز أولئك - في بداية القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ - مايكل فاراداي (Michael Faraday) الذي حَرَصَ على إلْقاء المُحاضرات العامّة وتَبْسيط أعْماله العِلْميّة، واشْتَهَرَ بمهارته في الحِوار والتّشْويق والإيضاح، وبذلك أَصْبَحَ فاراداي المُتَحَدِّثَ باسْم «الحركة العِلْميّة» في عَصْرِه والمُرَوِّجَ لها؛ ولذا عَمَدَتْ «الجَمْعِيّة المَلَكِيّة البريطانيّة» إلى تَأْسيسِ «جَائِزة فاراداي» لتُمْنَحَ لأولئك الذين يُسْهِمُون بشَكْلٍ بَارِزٍ في مجال «التّوعية العِلْميّة». ولقد سرى هذا التّقْليد - بشَكْلٍ عامٍّ - في الغَرْبِ، فتبنَّاهُ عَدَدٌ غير قليلٍ من الرُّوّاد وأصْحاب الاخْتصاصات العِلْميّة، واهْتَمّوا بعمليّة التّواصُلِ مع «الجُمْهُور» عبْر تَأْليف الكُتُب والنّشرات المُبَسّطة، وإلْقاء المُحاضرات العامّة، والمُشارَكة في الجمعيّات والهيئات المُهْتَمَّة بهذا الجَانِب؛ والقائِمَةُ طويلةٌ ومُتناميةٌ، وتَشْمَلُ: ألبرت آينشتاين وتوماس هكسلي وإروين شرودنجر وريتشارد فاينمان وجلين سيبورج وليون لدرمان وكارل ساجان وإسحاق عظيموف وستيفن هوكنج وغيرهم كُثُر.

وأمّا القَرْنُ التّاسع عشر الميلاديّ في أوروبا فقد شَهِدَ ما يُمْكِنُ أنْ يُوصَفَ بأنّه تَوَتُّرٌ فِكْريٌّ وقَلَقٌ مُجْتمعيٌّ بشَأْن الحَواجِز بين «العِلْم الطَّبيعيّ» من ناحيةٍ، وبين «الآداب والدِّراسات الإنْسانيّة» و«الثّقافة التَّقليديّة» للمُجْتمع من ناحيةٍ أُخْرى؛ وأمّا نِهاية الخمسينات من القرْن الماضي فقد كانتْ سنوات السَّبْقِ الرُّوسيّ عندما أَطْلَقَ الرُّوس أوّل قَمَرٍ اصْطناعيٍّ (سبوتنيك ١ـ) في عام ١٩٥٧م، ثم تلاه خلال أقلّ من شَهْرٍ «سبوتنيك ٢» مع الكلبة «لايكا»، ممّا أثار أشدّ القَلَقِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» على أوضاعها العِلْميّة وقُدْراتها التِّقنيّة[٤٤].

في ضوء تلك الظُّرُوف القَلِقَة برز مُصْطلح «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن» (The Two Cultures Controversy) في أدبيَّات «الفِكْر الغَرْبيّ المُعاصِر»، ويعود الفَضْلُ في طَرْحِ هذا المُصْطلح، وتَشْخيصِ هذه الإشْكَالِيّة - بشَكْلٍ جريءٍ وعميقٍ - إلى تشارلز سنو، وذلك في مُحاضرته التي أَلْقاها في «جامعة كامبردج» ببريطانيا - في عام ١٩٥٩م - بعنوان «الثّقافَتَان والثَّوْرَةُ العِلْميّة»[٣٢]. لقد أَفْلَحَ تشارلز سنو في هذه المُحاضرة في تَحْقيقِ ثلاثة أُمُورٍ على أقلِّ تَقْدير:

١) صاغ مُصْطلحاً جديداً ومَفْهُوماً مُهِمّاً.

٢) طرح مَجْمُوعةً من الأسْئلة التي يَنْبَغِي لكُلِّ مُهْتَمٍّ بأوضاع المُجْتمعات الحديثة أنْ يَتَصَدَّى لها.

٣) بدأ جَدَلاً واسِع النِّطاق في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» تَمَيَّزَ في أبْعادِه وآثارِه وشِدَّةِ الانْفعالات المُرْتَبِطَةِ به، ممّا تَرَتَّبَتْ عليه سياساتٌ جديدةٌ واهْتِماماتٌ مُتَنَوِّعَةٌ ومَنَاشِط مُتَعَدِّدَة.

٢-٨-١) أُطْرُوحة تشارلز سنو:

تَتَلَخَّصُ أُطْرُوحَةُ تشارلز سنو[٣٢] في أنّ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» تُعَانِي من شَرْخٍ بين «ثقافَتَيْن»: «ثقافةُ الآداب والعلوم الإنْسانيّة» من جِهةٍ، و«ثقافةُ العلوم الطَّبيعيّة» من جِهةٍ أُخْرى، بحيث أَصْبَحَتْ «المُجْتمعاتُ الغَرْبيّة»، ونِظامُها التّعْليميّ، وحياتُها الفِكْريّة، مُسْتَقْطَبَةً على المُسْتوى الفِكْريّ بين هاتَيْن «الثّقافَتَيْن» ممّا نَجَمَ عنه حَاجِزٌ من الشُّكُوك المُتَبَادَلَة بين المُنْتَمِين إلى كُلٍّ منهما تصل أحْياناً إلى درجة التَّنَافُرِ والعَدَاء، ولدى كُلِّ طَرَفٍ صُورةٌ مُشَوَّهَةٌ عن الآخَر، وتوجُّهات الطَّرَفَيْن مُتباينةٌ تماماً؛ وحتّى على المُسْتوى العاطِفيّ ليس لهما أَرْضيّةٌ مُشْتَرَكَةٌ كافيةٌ، ويرى تشارلز سنو أنّ أسْبَابَ «الفَجْوَةِ» مُتَعَدِّدَةٌ وعميقةٌ ومُعَقَّدَةٌ إلاّ أنّه يَعْتَقِدُ أنّ من أبْرز العَوامِل التي أَدَّتْ إلى تَفَاقُم «الإشْكَالِيّة» هي «التّعمُّق التّخصُّصيّ» في التّعْليم، وازْدياد أعْداد العَامِلين في المجالات العِلْميّة والتِّقنيّة.

وبالرّغم من أنّ تَشْخيص تشارلز سنو كان تَشْخيصاً محلّيّاً في ضوء وَاقِعٍ بريطانيٍّ بَحْتٍ إلاّ أنّ طَرْحَـهُ وجـد «رُدود فِعْلٍ» كبيرةً على مُسْتوى العَالَـم الغَرْبيّ لأنّه كان يُشَخِّصُ حالةً مَلْمُوسـةً - بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ وبأشْكالٍ مُخْتلفةٍ - تَحْمِلُ في ثناياها مُشْكلة «انْفِصَام العِلْمِ عـن المُجْتمع». ويرى ميشيـل سيـر (Michel Seres)[٤٧] أنّ «الحَـرْب العَالَميّة الثّانية» و«كَارِثـة هيروشيمـا» حَدَّدَتَا بداية تَفَـوُّقِ «العلوم الطَّبيعيّة» على «الدِّراسـات الإنْسانيّة»، وأَبْرزتـا ضـرورة التّواصُـلِ بين «العلـوم الطَّبيعيّـة» و«الدِّراسـات الإنْسانيّة»، ممّـا دَفَعَ المُفكّرين إلى الاهتمام بساحات التّفاعُل بين اهْتِمامات «الدِّراسات الإنْسانيّة» ومُعْطيات «العلوم الحديثة».

ويُوضِّـحُ تشارلـز سنـو[٣٢] - في مُحاضـرةٍ لاحِقَـةٍ - أنّ ذلك الصّـدَى العَالَميّ مع أُطْرُوحته أكَّدَ له نُقْطَتَيْن:

١) أنّ «إشْكَاليّـة الثّقافَتَيْـن» لمستْ وتراً حسّاساً في الحال لـدى المُثقَّفين في دُولٍ مُخْتلفـةٍ في العَالَم بشَكْلٍ يكاد يكـون آنِيّاً، وهذا يَعْنِي بالنِّسْبَةِ له أنّ الفِكْرَةَ التي أَنْتَجَـتْ هذه الاسْتِجَابَـةَ فِكْرَةٌ لا يُمْكِنُ لها أنْ تكون أصيلـةً، فالأفْكَارُ الأصيلةُ لا تَنْتَقِلُ بهذه السُّرْعة. وهكذا بدا من الوَاضِح له أنّ كثيراً من النّاس كانوا يُفَكِّرُون حـول مَلامِح هذا الموضوع وأبْعـاده، فالفِكْرَةُ - وفْق تَعْبيره -: (كانتْ مُعَلَّقَةً في الهواء وتَحْتَاجُ فقط إلى من يَصُوغُهَا في كلمات)[٣٢].

٢) أنّ ذلك التَّجاوب الواسِع والمُتنامي دَلالةٌ على أنّ هناك قِيمةً مُعَيَّنَةً لهذا الطَّرْح، وهـذا - فـي رأْيـه - لا يَعْنِي بالضّـرورة أنْ يكون الطَّـرْحُ صحيحـاً، أو أنّه ليس بالإمْـكان طَـرْح هذه الأفْكار بصِيـغٍ أُخْرى، ولكن يَعْنِي أنّ الطَّـرْحَ حَمَلَ بدَاخِله شيئاً ما رأى النّاسُ على مُسْتوى العَالَم أنّ له عَلاقَةً بالأوضاع السّائِدة.

لقد رأى تشارلز سنو أنّ في ذلك الاسْتِقْطَابِ القَائِم بين «الثّقافَتَيْن» خسارةً كبيرةً للمُجْتمـع بأَسْـرِه، وفي الوَقْتِ نفْسه هو خسـارةٌ فِكْريّةٌ وإبْداعيّةٌ بسبـب هَدْرِ الاحْتِمالاتِ الكبيـرةِ الإيجابيّـةِ المُتَرَتِّبَةِ على التّفاعُـلِ والتّواصُلِ بينهما. من نتائِج تلـك «الإشْكَالِيّة»

- فـي رأْي تشارلـز سنو - أنّها تُمَثِّلُ خطراً كبيراً يُهَدِّدُ رفاهيّة «المُجْتمع الغَرْبيّ» فيقول: (إنّـه من الخطر أنْ يكون لدينـا ثقافَتَان لا يُمْكِنُهُمَا التّواصُلُ فيمـا بينهما في الوَقْتِ الذي تُقَـرِّرُ فيه العلومُ الجُزْءَ الأَكْبَرَ مـن مصيرِنا)[٣٢]؛ وهكذا يرى سنو أنّ إغْلاقَ «الفَجْوَةِ» بين «الثّقافَتَيْن» ضرورةٌ في بُعْدِهَا الفِكْريّ المُجَرَّد، كما هي ضرورةٌ في بُعْدِهَا العمليّ المُباشِر.

٢-٨-٢) مَوْقِعُ «الثّقافة العربيّة» في «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن»:

أمّـا «الثّقافـةُ العربيّةُ» فهـي - في المقام الأوّل - ثقافـةٌ أدبيّةٌ؛ فيَنْشَـأُ الطِّفْلُ فينا مُسْتَسْلِمَـاً لأُسْلُـوبِ الحِفْـظِ والرّواية، ويُغَذِّي خيالـه بصُورٍ عاطِفيّـةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُهَـا الكلمـاتُ الرَّنانـةُ والإنْشائيّاتُ البليغة، فيَشُـبُّ على سَجيّةٍ أدبيّـةٍ خَالِصَةٍ فإذا اصْطَـدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ، ودِقَّةٍ تَجْريبيّةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتَّحَدِّي صَعْباً، والاسْتِمْرَارُ مُعْضِلَة.

وتَتَجَلَّـى هذه «الإشْكَالِيّـةُ الثّقافيّةُ» فيما وَصَفَهُ زكي نجيب محمـود بأنّه «ازْدواجيّةٌ مُخِيفـةٌ»، مُوَضِّحـاً أبْعادها في قَوله: (ولهـذه الازْدواجيّة في حياتنـا الثّقافيّة بين العِلْم والـلا عِلْـم، نتيجةٌ تُثِيرُ الغيظَ عند المُثقّفِ الذي يَحُسُّ خطـورة رِسالته؛ وهي أنّ كثيرين من رِجـال الثّقافة منّا يَسْتَخْدِمُـون للأفْكار طريقة بروقسطيس فـي الأُسْطُورَةِ اليونانيّة القديمـة، التي يُقَالُ فيها إنّ بروقسطيس قد أقام على طريق المُسَافِرين نُزُلاً يَسْتَريحُون فيـه، لكنّه جعل الأَسِـرَّة كُلَّهَا ذات طُولٍ مُعَيَّنٍ، فإذا كان النَّـازِلُ عنْده أقْصر من السَّرير وَضَعَـهُ فـي آلـةٍ أعَدَّهَا لتَمُطّ الجَسَـدَ حتى يُطابِقَ طُـول السَّريـر، وإذا كان النَّازِلُ عنده أطْـول من السَّرير، جَذَّ سَاقَيْهِ ليَقْصُرَا إلى الحَدِّ المَطْلوب، فلا يَنْجُو من شَرِّهِ إلاّ مُسَافِرٌ شاءتْ له المُصادَفةُ المُواتِيةُ أنْ يكون في طُولِهِ مُطابِقاً للطُّولِ المَطْلُوب)[٣٨]. وأمّا راشد المبارك، فيَلْجَأُ إلى تَصْويرٍ عِلْميٍّ يُوَضِّحُ «أبْعَادَ المَأْزِق» الذي وَقَعَتْ فيه «الثّقافة العربيّة» بحُكْـمِ الهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ على «المِزَاجِ العربيّ» فيقـول: (لقد تَحَوَّلَ فَنُّ صِنَاعَةِ الكلامِ إلى حَقْلٍ مغْناطيسيٍّ هَائِلٍ جَذَبَ إليه الفِكْرَ والوِجْدان، ورأى النّاسُ فيه أبْعَدَ ما يتطلَّعون إليه مـن آفـاقٍ تُوَجَّهُ لإجادته والتّفوُّقِ فيـه مُعْظَمُ طاقاتِ العَقْل ووظائفِـه، وأَصْبَحَ هو الوثيقة

التـي يُجْتَازُ بها كُلّ الحُدُودِ والمَواقِعِ والحُصُـون، إلى صُدُورِ المَجَالِس وعطاءِ السَّلاطين وكراسـي الوزارة، ونَتَجَ عن ذلك أنْ كُتِبَ في هذا الجَانِبِ أَثْقَلَ ما تَنُوءُ به المَكْتبة العربيّة مـن أَحْمَالٍ، وأنْ يكون أضْخم الكُتُبِ التي عرفها تاريـخ التّأْليف كِتاب «صُبْحُ الأعْشَى في فَنِّ صِنَاعَةِ الإنْشَا»[٢٥].

ذلـك «المَـأْزِقُ الفِكْريُّ» الذي تعيشُـهُ «الثّقافةُ العربيّةُ» في حَاجَةٍ إلـى وَقْفَةٍ أَطْول، وتَشْخيصٍ أَعْمـق، وفَهْمٍ أَدَقّ، لأنّه «المَـأْزِقُ» الذي يُعِيقُ حركتَها، ويُثَبِّـطُ هِمَّتَهَا، ويَخْنُقُ تفاعُلاتِها في عمليّات التّواصُلِ مع زمنِها والتّعامُلِ مع عَصْرِهَا، ونَسْعَى في الفَصْل التّالي إلى الغَوْصِ في أَعْمَاقِ هذا «المَأْزِقِ»، وتِبْيَانِ بعض تفاصِيلِه، والوُقُوفِ على أَبْرَزِ مَلامِحِه.